

بيضة الديك

محمد زفزاف



بيضة الديك

روايـــة



للنشر والتوزيع

2013

عنوان الكتاب : **بيضة الديك (رواية)**

اسم الكاتب : **محمد زفزاف**

المدير المسؤول : **رضا عوض**

رؤية للنشر والتوزيع

القاهرة : 012/3529628

6 ش البطل أحمد عبد العزيز – عابدين

تقاطع ش شريف مع رشدي

Email: Roueya@hotmail.com

فاكس : 25754123 (202) +

هاتف : 23953150 (202) +

الإخراج الداخلي : **حسين جبيل**

جمع وتنفيذ : **القسم الفني بالدار**

الطبعة الأولى : 2013

رقم الإيداع : 2012/21986

الترقيم الدولي : 978-977-499-080-9

بيضة الديك

روايـــــــــة

محمد زفزاف



للنشر والتوزيع

2013

1

باب من فتح الله عليه

أحيانًا لا يُدفع كراء هذه الغرفة في نهاية الشهر، أو نهاية الشهرين، كثيرًا ما دفعت «غنو» عنا، اسم غنو لا يعجبها. تسمي نفسها جيجي. هي صديقتي ولا أعرف ما إذا كانت قد خانتني مع الثلاثة الآخرين. ولكن ذلك لا يمكن، لأن هناك احترامًا معينًا بيننا. على الأقل هذا ما أشعر به عندما تراودني نفسي عن واحدة من نساء أو فتيات أصدقائي. لا أستطيع أن أفعل ذلك، حتى ولو وضعوا المشنقة حول عنقي. ثم إني لست من ذلك النوع من الرجال الذين تحدّث عنهم تولستوي في «سوناتا إلى كروتزر». قليلة هي الكتب التي قرأت ولكن أروعها هو «سوناتا إلى كروتزر». أقرأه وأعيد قراءته. قيل لي

إنه لكي تفهم كتابًا ما أكثر، عليك أن تكون حاصلًا على الباكالوريا. هذا غير صحيح. كثيرًا ما أتناقش مع بعض طلبة الكلية لكنهم يفكرون مثل أطفال. أنا لم أحصل على شهادة. طردتني أستاذة رومانية عندما أعطتني صفرًا في مادة الفيزياء على دورتين. وبدا أني شاب غير مرغوب فيه، عليَّ أن أترك مقعد المدرسة لشاب آخر، خصوصًا وأن البلاد تجتاز حالة تقشف. والتقشف معناه النقص في المدارس والنقص في أقراص الدواء والحقن والأسرَّة في المستوصفات والمستشفيات، لكن لا يهم. كل واحد يولد برزقه، ولا حاجة بنا إلى ما يمليه أستاذ العربية: «اعقلها وتوكل». لأنني أتوكل دون أن أعقلها. ولن يستطيع أحد أن يسرقها أو يركبها لأني متوكل ولأني ولدت برزقي. وهكذا تمسك يد الرومانية على التراب أو على الصفر. فأنا أعيش.

قالت غنو:

- إنك برزقك، رغم أنك لا تشتغل. لم أرَ رجلًا مرزاقًا مثلك. ولذلك أحبتك وسوف أظل أحبك إلى أن نموت معًا.

المهم أنني لا أموت جوعًا. غنو تشتري لي أحيانًا بعض الثياب، الأصدقاء يشترون السجائر. ونأكل من مائدة واحدة لا أدفع عن محتواها قرشًا. كانت صاحبة الصيدلية هي التي توسطت لي أول الأمر لأكتري هذه الغرفة فوق سطح عمارة

من خمسة طوابق. الغرفة ليست ضيقة وليست واسعة لكن المرحاض يوجد في إحدى زوايا السطح. يكون ذلك متعبًا جدًا خصوصًا في فصل الشتاء، وعندما يستيقظ المرء في عزّ الليل ويريد قضاء حاجته. لها شبه مطبخ ينام فيه واحد أو اثنان أحيانًا. دخلت معي صاحبة الصيدلية التي كنت مستخدمًا عندها إلى الغرفة ذات يوم. رفعت عينيها إلى سطح الزنك. كانت فيه بعض الثقوب التي عرفت كيف أغطيها فيما بعد. جالت بنظراتها في الزوايا، ثم ألقت بنظرة خلف الباب إلى المرحاض في الخارج:

- أنت الآن مستريح. لن تصل بعد متأخرًا عن العمل من حي مبروكة. سوف تربح فلوسًا، سوف تدّخر، وسوف يكون لك أبناء في هذا البيت المريح.

- أشكرك. هذا ما كنت أبحث عنه. مكان مثل هذا أحسن من النوم مع سبعة إخوة في بيت ضيق يتنفسون عليّ كل ليلة.

لكن صاحبة الصيدلية طردتني بعد عام من العمل لديها. قالت إن ذلك فضيحة، ولا يمكن لفضيحة من هذا النوع أن تلحق بالعائلة. أختها لا يمكنها أن تحب مستخدمًا فقيرًا مثلي. وأنا لم أكن أعرف ما إذا كانت تحبني حقًا. لم يظهر لي ذلك في تصرفاتها أبدًا. لكننا كنا نتفاهم. نتناقش. وكانت تقول لي

يجب أن تكون ماركسيًا. حياة الكلاب هذه التي تعيشها لا تليق بشاب مثلك. طردتني صاحبة الصيدلية رغم أني حاولت أن أشرح لها كل شيء.

قالت لي:

- هؤلاء المراهقات لا يعرفن أين يضعن أقدامهن. عندما تكبر سوف تعرف أي خطأ ارتكبت.

- ولكنها، سيدتي لم ترتكب أي خطأ. إنها فتاة طيبة وذكية.

- لا يهمني.

حاولت أن أبحث عن عمل آخر في إحدى الصيدليات. لكن دون جدوى. في الشهور الأولى كان حسن هو الذي يدفع الكراء وثمن الأكل. ذلك يضايقه كثيرًا، لأنه كان يرسل بعض المال إلى عائلته في مكناس. بعدها سكر معنا دحو والمخنتر، أخذت الأمور تهون. وبعدها تعرفت إلى جيجي فأصرّت على أن تحبني وأن تعيش معنا. هذا شيء رائع، كل واحد يولد ويولد رزقه معه. ويمكن للمرء أن يتوكل دون أن يعقلها. ولا أحد يستطيع أن يركبها أو يسرقها. ويد الرومانية أو صاحبة الصيدلية على الصفر أو على التراب. كان والدي الذي يبيع بعض الخضر المتعفنة في سوق الحفرة لا يستطيع أن

يُعيل هذه الأفواه كلها. كل شيء ارتفع ثمنه. أربعة إخوة لا يذهبون إلى المدرسة لأنه لا يستطيع أن يدفع عنهم. يظلون يتسكعون، يتشاجرون، أو يتاجرون في أقراص المخدرات لأطفال في سنهم. الاثنان الآخران ليسا متفوقين في دراستهما. وكان والدي يقول:

- يجب أن تدرس. أنت الكبير. عليك أن تحصل على وظيفة مع المخزن لكي تساعدني.

أما الوالدة:

- أبوك ما عادت له صحة. وخضراواته المتعفنة، يلقي بنصفها في المزبلة. عليك أن تصبح شرطيًا لترفع رأس أمك عاليًا في الحي. إخوتك دائمًا مظلومون من طرف الأطفال. هم في حاجة إلى من يدافع عنهم.

لكن مع الأسف لم تستطع الرومانية أن تحقق آمالهم فيَّ. مزّقت نتيجة الطرد المدرسي وفررت من البيت. وعندما وجدت عملًا لدى الصيدلية عدت إليه. شيء قليل خير من لا شيء. لكني فررت من البيت مرة أخرى. ليس في طاقتي أن أعيل كل هذه الأفواه. ولم أعرف كيف كان أبي وأمي يستطيعان أن يعيلانا. الحاجّة صاحبة العمارة حاولت طردي بعدما طردتني صاحبة الصيدلية، لكنني صمدت. هذا غير ممكن. إلى أين أذهب؟ شيئان يجب أن يتشبث بهما الإنسان: بيته

في الحياة، وقبره في الممات. المأوى هو كل شيء بالنسبة للإنسان في الحياة أو في الموت. استطعت أن أتدبر أمري معها؛ رغم أنها حاولت أن تهددني بشخص ذي عضلات كأنه مصارع روماني. كنت ألتقي به في سلّم العمارة ولا أتحدث إليه. تدّعي أنه ابنها، ولكن الناس كانوا يتحدثون عن علاقة أخرى بينهما. ذلك ليس أمرًا مستحيلًا. قالت إحدى الجارات ذات يوم:

- وماذا تنتظر من يهودية أسلمت؟

قال عجوز:

- إن اليهود يدخلون دين الإسلام لكي ينجوا من المسلمين، فيقووا شعبهم. إنهم يرتدون - طيلة الأسبوع - الجلباب والبلغة والرزة ويذهبون إلى المسجد. لكنهم يوم السبت يغيرون ثيابهم ويذهبون إلى البيعة.

- ما سمعت بهذا.

- أنا الذي أعرفهم جيدًا. أنا أكبر منك سنًا، وعشت معهم منذ طفولتي في حواري المدينة القديمة.

حرّضت الحاجة مرارًا عليّ ذلك البغل. ولكني كنت أتجنبه، فجسمه يساوي ثلاثة أضعاف جسمي، لكنه عندما شرب زجاجة نبيذ، ظلّ ليلة بأكملها يركل باب الغرفة:

- اخرج أيها الكلب، لأفصل رقبتك عن جسدك، هل هذه الغرفة تركها لك أبوك إرثًا؟ هل صحيح يا ابن... أنك شتمت سيدتك الحاجة، ونعتّها بتلك الصفة؟

حاولت الساعات الطوال ألا أهتم لهياجه. كان يركل الباب ثم يذهب ليعود مرة أخرى وهو أكثر اهتياجًا.

اختفى الصوت. لكنه عاد في الثالثة صباحًا. كانت الكلمات تخرج من فم ذلك البغل بطيئة بفعل الخمر. وكان يدفع الباب بقوة وهو يشتم. لم أتمالك نفسي، مددت يدي إلى قطعة حديد في الدوش. تربصت وفتحت الباب. لم أكن أعرف ما أفعل. واحدة في الرأس والأخرى في الكتف وأخرى في الهواء. خرّ البغل مجندلًا أمامي تحت الضوء الخفيف المنبعث من الباب. ألقيت بالحديدة داخل الغرفة، اقتربت منه وأمسكته من شعر رأسه. سمعته يهذي ويشتم دين أمي، قال أيضًا إنه غدًا صباحًا سوف يقتلني. لم يعد يهمني السجن أو القتل لكن حياة الكلاب هذه أرفضها، تذكرت «كن ماركسيًا» لكني لا أعرف شيئًا عن الماركسية، إني أقرأ تلك الأشياء ولا أفهمها. لا أفهم سوى بعض الروايات. القتل أو السجن شيء واحد. لقد خسرت كل شيء بالرغم من أني لم أربح قط شيئًا. هذا البغل، يأكل ويشرب وينام عند أمه الحاجة. إذا ذهبت معه إلى السجن فسوف أحرمه ولو لأيام من متعه تلك. متع أي بغل أن يأكل وينام ويشرب ويفعل الحب.

سمعت خطوات امرأة على السلّم، فابتعدت عن هذا الجسد العريض الطويل. وقفت عند باب الغرفة، حجبت قليلًا من الضوء الباهت الذي كان ينتشر على السطح. سمعت صوت الحاجة:

- عمر.. عمر.. أجبني أين أنت؟

أطلّت الحاجة برأسها، صرخت:

- ناري! ماذا فعلت يا ولد الكلبة؟ هل قتلته؟ سوف تؤدي الثمن غاليًا. ألا تعرف يا ولد الحرام أني أعرف المقدم والخليفة والعامل والكوميسير؟

- سأقول لهم كل شيء هؤلاء الذين تعرفينهم. سأقول لهم إنه ليس ابنك وإنك تتاجرين في الخمر والكيف والنساء. عندي شهود. هل تعتقدين أني لا أعرف من أين تعيشين يا شارفة؟

- متى تعلمت الكلام يا ابن الكلبة؟ لقد كنت لا تستطيع حتى رفع عينيك في وجهي.

- أنت التي علمتني كل شيء يا حاجة. تريدين طردي من هنا. سوف أموت هنا. حتى ولو استعنت بثكنة من العسكر.

أغلقت ورائي الباب، وتمددت فوق السرير الصغير الذي لا يتسع لشخص، وسمعت الحاجة في صوت متحشرج باكٍ وهي تنادي عليه:

- عمر.. عمر. أفق. هل أجلب لك بصلة؟ إن دمك لا يسيل بغزارة. لماذا شربت كثيرًا هذه الليلة؟

سمعت صوته، ثم صوت خطواته متوجهة نحو الباب. ضربه بقبضة ضعيفة:

- غدًا أقتلك. سوف تعرف من أنا. لن أذهب إلى الكوميسارية. أنا أعرف كيف أصنع قانوني بنفسي.

لكنه لم يقتلني في صباح ذلك اليوم. كانت الضمادات حول رأسه. رأيته جالسًا على كرسي عند باب العمارة وهو يدخن بنهم شديد. عندما اقتربت من الباب رفع رأسه إليّ، وعيناه تتقدان إنسانية هذه المرة. لم يعد ذلك الوغد القذر الفظ. تساءلت كيف يمكن لتصرفات إنسان ما أن يكون الغرض منها شيئًا معينًا، إلا أنها تعطي نتيجة معكوسة. لاحظت أن ذلك يتجلى بالخصوص في العلاقات النفسية للبشر. كثيرًا ما تحل حالة مكان أخرى: غضب بدل فرح، وحقد بدل حب. قال عمر:

- إن ما فعلته أمس لا يليق بشاب مهذب مثلك.

- لقد كنت أنت البادئ. حاولت مرارًا أن أتمالك أعصابي، لكنك أثرتها في نهاية الأمر، هناك بشر لهم قدرة خارقة على إثارة أعصاب حتى الجماد.

- لقد كنت سكران. كان عليك أن تفهم ذلك.

- لو لم أفعل ذلك لكنت قد ارتكبت أكبر حماقة في حياتك.

- لا تؤاخذني. إني لا أستطيع أن أفعل شرًا بالبشر أمثالك.

سلمني سيجارة بيد عليها خدوش ربما كانت نتيجة ما وقع أمس. صعدت إلى الغرفة، وقلت هذا كسب جديد. سوف أستريح من كابوس طالما أرقني. الحاجّة بدونه لن تستطيع أن تفعل بي شيئًا. إنه كل شيء. هو قلبها حين تحب وتكره، هو عقلها حين تفكر أو تأتي أي فعل. لقد كانت معركة أمس مفتاحًا جديدًا لحياة أخرى جديدة، ربما لن أعرف نهايتها. في المساء صعد إلى الغرفة بزجاجتي نبيذ ونصف دجاجة مشوية اشتراها من محل «تشيكن هاوس» على بعد حوالي أربعين مترًا من العمارة. وفكرت أنني مرزاق فعلًا. ذهبت ونظفت طبقًا وكأسين. وقال عمر:

- يجب أن نصلح خطأنا. الإنسان الحقيقي هو الذي يكون قلبه كبيرًا، يحاول أن ينسى أخطاء الغير..

قلت:

- متفق معك يا عمر. أنت رجل طيب. لكن لا أدري ما الذي أصابك ليلة أمس.

- لقدكانت العجوز هي الحب. لقد ملأت عقلي بأوهام كثيرة. تحت تأثير الخمر.

- إنها عجوز شريرة. أعرف أنك لست ابنها بالتبني.

- متى كانت لي أم مثل تلك العجوز؟ لا أكتمك شيئًا يا رحّال، إني أبحث عن مكان أدخل فيه مسماري فقط. أنا أعيش. إذا لم أفعل ذلك فإلى أين أذهب؟ حتى السجن دخلته ثلاث مرات. المرة الرابعة هي التي أنقذتني حينما حطمت وجه شرطي أراد أن يأخذ فتاة بالقوة.

- إنه لشيء ضروري لأي إنسان أن يجد له حائطًا كي يدق فيه مسماره. أنا لم أجد لحد الآن سوى الخشب المسوس.

- عليك أن تصبر. أعرف أن حياتك قاسية. اعتمد عليّ ما دمنا قد ربطنا علاقة صداقة.

صببت لعمر، شرب الكأس الأولى جرعة واحدة ثم ضرب بالقاع:

- تلافيًا لمرارة الكأس الأولى يجب أن تشرب دفعة

واحدة. هل تدري لماذا اشتريت نصف الدجاجة هذه؟ من أجلك أنت فقط. أما أنا فالطعام متوفر لدي تحت. الفتيات تحت يتقنّ الطبخ. سوف آكل مثل خنزير، وسوف أتذكرك.

ثم أضاف عمر:

- هل تدري لماذا أرادت الحاجة طردك؟

- لأنني لا أدفع ثمن الكراء.

- إنها تريد شبانًا آخرين يعيشون تحت رحمتها. كل يوم تأتي مجموعة وتسأل عن غرفة فارغة. لم تكن تفكر إلا في غرفة السطح هذه. ما رأيك أن تُسكن معك اثنين أو ثلاثة أشخاص يدفعون ثمن الكراء ويخففون عنك الكثير؟

- فكرة جيدة.

ثم بعد ذلك كان حسن ودحو والمختر. كانت لي علاقة سابقة بالمختر وحسن أما دحو فهو صديق المختر. بعضنا ينام في الغرفة وبعضنا ينام في المطبخ. لم يكن يهمّنا المكان الذي ننام فيه. كنا نشعر أحيانًا أول الأمر بإحراج عند وجود النساء. لكن كل شيء يؤلف ويتعود عليه.

وقال عمر:

- هل تعرف أني لست من الدار البيضاء؟

- لا أعرف.

- أنا من مراكش، اغتصبت فتاة وفررت بنفسي من هناك. كانت تحبني، لكن أباها كان شريرًا. لقد جنت عليّ تلك الحادثة. اجتزت مباراة للالتحاق بالجمارك. نجحت في الامتحان، ولكن عندما وقعت الحادثة اضطررت للاختفاء. إن طريق النساء هي طريق الشر. تفو عليهن! وبعدها جئت إلى الدار البيضاء. دخلت السجن، والتقيت فيها بعد بهذه الشارفة الهارفة.

- على كل حال لقد وجدت لك ملجأ.

- إني أعيش كملك. ولا أعتقد - فيما لو كنت قد أصبحت جمركيًا - أن أعيش مثل هذه الحياة. إني لا أفعل شيئًا الآن. لكن حياتي قد تصبح مهددة ذات يوم. هل تعرف أي عالم هذا الذي تعيش فيه الحاجّة. إذا ما وقعت فسوف تجر معها العشرات من الناس. وأنا طبعًا، سأكون في أول القائمة.

- إني أثق بذكائك. لا يمكن لامرأة مثل تلك أن تورطك.

- يجب أن تعرف النساء.

الوقت تجاوز الثانية عشرة ليلًا. كنا قد شربنا. وقد اقترح عمر أن ينادي على المرأتين من تحت. قلت له:

- لا نريد مشاكل مع تلك العجوز.

- صحيح. يجب أن تنسى حادثة أمس أولًا، إنها امرأة حقود. أنت لا تعرفها.

- يظهر عليها ذلك، لكن يبدو أنها لا تستطيع أن تحقد عليك.

- عندما تحقد فإنها لا تميز بين عمرو وزيد. لقد علمتها الحياة كيف تحقد. ومع ذلك فحياتها لا يستطيع أي إنسان أن يعرفها كلها حتى ولو سكرت.

- هل تشرب؟

- إنها تشرب مثل بالوعة، رغم أنها حجت ثماني مرات.

كانت الكلمات ثقيلة في لسان عمر. أنا أيضًا شعرت بنوع من الارتخاء. عظام الدجاجة بعضها ممضوغ والبعض الآخر علقت به نتف من اللحم. الخبز أيضًا فوق الطاولة اكتسب لونًا أصفر، لون الزعفران. وقال عمر:

- سأنزل إلى تحت، لأرى ما يحدث هناك. سوف أكمل السهرة.

- إنك ملك فعلًا. لا تستيقظ حتى ساعة متأخرة من النهار.

- لا شك أن إحدى الشخصيات البارزة تكون الآن في بيت الحاجة. ومع ذلك فأنا شخصيًا لا أثق برجال السلطة. إنهم يمكرون مثل الثعالب.

- حسنًا تفعل. لا تثق بأمثالهم.

هذه حياة أخرى تبدأ بالنسبة إليّ. لقد أصبح كل شيء سهلًا. ضمان المأوى والأكل. ليست هناك مضايقات. الحاجة نفسها بعد مرور ثلاثة أيام أصبحت تستدعيني إلى البيت لأتغدى أو أتعشى معهم. كثيرًا ما كانت تعدني:

- لقد كان معنا كوميسار أمس، تحدثت له عنك. وعدني أن يشغلك في البوليس.

- إني لا أحب تلك المهنة.

- وهل هناك شخص في الحياة لا يريد أن يكون من رجال المخزن؟

- أنا.

- هل تعجبك هذه الحياة. ماذا سوف تأكل. تبدأ أول

الأمر كشَكَّام (مخبر). ثم سوف تترسم معهم. سيكون لك كل شيء في الحياة. أنا نفسي أعمل معهم.

ثم أخرجت الحاجة بطاقة لم أميزها من بعيد. كانت تخفيها في أحد الجوارير عند زاوية السرير.

هذا نوع آخر من الحياة إذن. ولكني لا أريد أن أشتغل إلا في صيدلية أو شركة، أو أي عمل حر. ولا أدري لماذا تذكرت إخوتي وأمي وأبي. هل أصبح من أجلهم مخبرًا. لا أستطيع. يمكنني أن أفعل أي شيء إلا ممارسة تلك المهنة. كان أبي يريد دائمًا أن أصبح شرطيًا. وربما اعتقد أني سأحميه عندما يداهم رجال القوات المساعدة جميع الباعة المتجولين، ويأخذون منهم سلعهم إلى المقاطعات بدعوى أنها ستقدم إلى الملاجئ الخيرية. ولكن ذلك لم يكن يحصل، بل كانت توزع تلك السلع على موظفي المقاطعات، والنصيب الأكبر للخليفة أو للقائد. مسألة المأوى أو الأكل لم أعد أفكر فيها فيما بعد. ما كنت أفكر فيه هو بيت فقير حقير في حي مبروكة. كان ذلك هو الشيء الذي يؤرقني كثيرًا، ولكن كل واحد يزداد برزقه. كم طفل لم يلتحق بالمدرسة ولكنه استطاع فيما بعد أن يكوّن له ثروة. الحاجّة لم تعرف المدرسة لكنها أصبحت غنية. كم من حاج ومن حاجة يمتلكون الفيلات والحابات في الأبناك والأسهم، ولا يعرفون كيف يمضون أوراق معاملاتهم. إذن

لا داعي للتفكير في ذلك البيت الفقير في حي مبروكة. فكل الأحياء في الدار البيضاء فقيرة وحقيرة، باستثناء تلك الأحياء التي يتنافس سكانها على تنويع معمار فيلاتهم. إنهم لا يعيشون معنا ولا يعرفوننا. حتى ثيابهم ولوازم بيوتهم يجلبونها من أوروبا. وبناتهم لا ينظرن إلينا، ولكنهن ينظرن إلى أولئك الشباب الشقر من الأوروبيين. وكثيرات منهن يحببن اليهود. تفو عليهن وعلى آبائهن وأمهاتهن وعلى من كبَّر لهن الشأن. وكثيرًا ما تمنيت أن يقع زلزال في الدار البيضاء حتى يصبح عاليها سافلها وسافلها عاليها. ولكن أبعد الله عنا الشر. أولئك الكلاب سوف ينتفضون كما تنتفض العنقاء من الرماد، ويبنون ثروتهم من جديد، أما نحن فسوف نزداد فقرًا ونفقد مآوينا.

وقالت الحاجّة:

- إذا لم ترد أن تشتغل شَكَّامًا مع البوليس فإني أعرف مدير أحد معامل البلاستيك في عين السبع يمكنه أن يجد لك عملًا.

- لكن يلزمني ركوب ثلاث حافلات.

- كم أنت ولد مدلل.

- لست مدللًا يا حاجة، ولكن أعرف أولئك

الاستغلاليين. وما سوف يدفعونه لي، سأدفعه من أجل وجبة غداء وعلى سجائر وركوب الحافلات ست مرات في اليوم.

- معك حق. هذا كلام معقول. إذن عليك أن تشتغل شكّامًا.

- لن أفعل حتى ولو متّ جوعًا.

كل إنسان يزداد برزقه في الدنيا. ولا شك أن صاحبة الصيدلية سوف تندم ذات يوم وسوف تعيدني إلى العمل عندها. ظللت على ذلك الأمل طويلًا لكنه لم يتحقق. كما ظللت أحلم دائمًا بحصولي على جواز سفر، ولكنه لم يتحقق حتى الآن. ومع ذلك فإن الإنسان يستطيع أن يعيش وألا يموت جوعًا أو عطشًا. جيجي أيضًا ظلت تمنيني بعمل. كانت تشتغل في أحد الملاهي الليلية. لكنها بعدما استطاعت أن تغري مسير الملهى. جاءت في ذلك الفجر وهي تكاد تطير من الفرح. كنت نائمًا:

- رحّال. أفق.

استيقظت مذعورًا. خمنت أن هناك شيئًا ما في حياتي سوف يتغير. قبلتها وهي جالسة قربي على السرير:

- ما لك؟ هل اكتشفت كنزًا؟ إذن أصبحنا أغنياء منذ اليوم.

نهضت من فوق السرير وأخذت أرقص. وقفت جيجي وعانقتني من الخلف:

- بالفعل اكتشفت كنزًا، وجدت لك عملًا في الملهى. وسوف تشتغل نادلًا. كل الجراسين أغنياء، لهم عمارات وسيارات وإلخ... سوف تصبح مثلهم. لقد وافق المسيّر.

توقفت عن إبداء أية حركة. هذا شيء رائع، عمل غير متعب في الليل يدر أموالًا، إن جيجي امرأة رائعة حقًا. عانقتها بحرارة. كانت أنفاسها حارة عند عنقي. عندما أبعدتها عني قليلًا رأيت الدموع تسيل من عينيها.

قلت:

- جيجي!

- نعم.

- هل تحبينني حقًا؟

- ولماذا أفعل كل ذلك من أجلك إذا لم أكن أحبك؟ أنا لم أفعل هذا من جل أي إنسان أبدًا.

ضممتها من جديد بحرارة أكثر.

- سوف أفعل من أجلك الكثير أنا أيضًا.

بدأت حياة أخرى جديدة من يومها. فكرت أيضًا في أولئك الذين يحاولون أن يكونوا مثل عصا تعرقل دوران العجلة. لكن أنا أؤمن بطبيعة الخير دائمًا في الإنسان. أما أصحاب الطباع الشريرة، فإن أيديهم دائمًا لا تمسك سوى على التراب أو على الأصفار.

2

باب التي وجدت ما أرادتْ

ليس من السهل في شيء أن يجد الإنسان له مكانًا في الحياة. ذلك يتطلب نوعًا من الصبر والتحمل. لقد صبرت وتحملت، ربما هناك من صبر وتحمل أكثر من مني. عرفت أقبية الكوميساريات عدة مرات. دخلت السجن أيضًا. حصل ذلك من أجل إيجاد هذا المكان المعين في الحياة. السجن لا يمكن أن أدخله الآن. المغفل هو الذي يقع بين براثن الشرطة. كل الأشياء تُحل في المهد. يكفي فقط استعمال هذا المخ الذي أعطاه لنا سيدي ربي. وبالنسبة لامرأة ذكية فإنها تستطيع أن تستعمل شيئًا آخر. لكن هذا الشيء الآخر لا يستعمل إلا باستعمال المخ. كانت والدتي توصيني دائمًا:

- عليك أن تكوني يقظة. إنك أنثى. ذات يوم سوف تحملين من مسلم، وأنت تعرفين ما بيننا وبين المسلمين.

أمي كانت لها علاقة مع المسلمين والمسلمات. ولكنها مع ذلك كانت تحذرهم. لكنها في نهاية الأمر، وقعت فيما كانت تحذرني منه. عندما توفي والدي ربطت لها علاقة مع السي العربي، ذي الكتفين العريضتين. لا أزال أتذكره، كان يشرب برميلًا من الخمر ولا يسكر. ترك زوجته وأطفاله، وربط مصيره مع أمي. زوجته كانت سوداء وأمي بيضاء مشحمة. ويبدو أنه كان يحب هذا النوع من النساء. لم أر أمي تحب رجلًا في حياتها أكثر مما تحب السي العربي. لا أزال أذكره بطاقيته المائلة إلى اليمين دائمًا. والوشم على ذراعيه. لم يكن يرتدي سوى الثياب الأمريكية، التي يجلبها من الميناء أو يشتريها من سوق البحيرة.

قالت أمي:

- إن السي العربي بمثابة أبيك. يستطيع أن يحمينا.

ولكن السي العربي عندما بلغتُ السابعة عشرة أخذ ينظر إليّ نظرة أخرى. قلت ذلك لأمي. لكنها قالت إني صغيرة ومعجبة بنفسي. وأضافت:

- انظري إلى جسم أمك كم هو مكتنز. إن السي العربي لا يحب إلا نساء مثلي. إنه مثل أبيك.

وكفّت والدتي عن أن توصيني بالابتعاد عن المسلمين. كيف يستطيع إنسان أن ينصح آخر، وهو يمارس ما ينصح عنه. ذات يوم وقعت في يد مسلم. لا يشبه السي العربي في شيء. فرّ من بيتهم، وفررت من بيتنا. سكنا في فيردان. لكن اليهود كانوا يشتمونني. أسلمت وتزوجنا واختفى من حياتي. وتعلمت كيف أصبر وأتحمل. رجعت إلى البيت، وكانت أمي تحاول أن ترسم لي طريقًا أخرى غير التي ذهبت فيها. قالت لي ذات يوم:

- يجب أن تكوني عاقلة. السي العربي سوف يزوجك. عليك أن تستقري.

كيف أستقر مع شخص لا أعرفه، إن من أحببته اختفى، لا أعرف كيف تنقلب عاطفة الرجال بهذه السهولة. كل شيء ممكن. عرفت فيما بعد أن البشر ينقلبون بسهولة. لا أحد يستطيع أن يتحكم في إحساساتهم. قد يكون الملل هو الدافع، لا أدري. فضلت ألا أتزوج. حاول السي العربي أن يقنعني لكن عبثًا. بعدها لم أعد أرى أمي. خرجت من البيت ولم أعد إليه إلا قليلًا. بعدها بغلتني وفاتها، وعودة السي العربي إلى زوجته الأولى. كانت أقبية الكوميساريات هي المحك. ولإيجاد مكان في الحياة لا بدّ من محاولة مواجهة الحياة نفسها.

قطعت علاقتي مع مجتمع اليهود. كنت أشعر أنهم بعيدون عني تمامًا. أنا مسلمة رغم أني لا أصَلّي. ما إن أرى يهوديًا حتى أتقزز. ولا أعتقد أني نمت ذات يوم مع يهودي. لا أتذكر، كان البار الذي كنت أشتغل فيه يمتلئ باليهود الذين لا يتحدثون إلا الفرنسية نسوا حتى لهجتهم المغربية. إنهم يتحدثون عن المغاربة المسلمين مثلما يتحدث الأجانب عنهم في البار. لكنهم في بيوتهم يتذكرون تلك القرى الصغيرة في الجنوب أو في وزان أو ابن أحمد. يتحدثون بالعربية إذ ذاك، وعندما يشربون الماحية ويسكرون يتمجنون على بعضهم. تفو! أنا أعرفهم جيدًا. علمني ذلك البار الذي اشتغلت فيه أكثر من خمس عشرة سنة الشيء الكثير، منه كسبت كل ما أملك الآن. وكان بإمكاني أن أملك أكثر، لكن لم يكن لي عقل. كنت طائشة وأثق بالرجال كثيرًا، كنت أعطيهم كل شيء ولا آخذ منهم شيئًا. أخذت عواطف زائفة أحيانًا. تعلمت أيضًا أنه لا يمكن الثقة بزبائن البارات إنهم يكذبون في الليل وينسون في النهار. يكذبون من أجل الجسد فقط. من أجل رغبة عابرة أو متكررة. ثم ينفضون أيديهم منك. ما أنت إلا امرأة كذّابة، وهذا الكلام الذين تقولينه لي تستطيعين قوله للآخرين، هذا غير صحيح. كنت أكذب، ولكن كثيرًا ما

كنت أصدق. لكن بقدر ما كنت أكذب كنت أنجو بنفسي وبقدر ما كنت أصدق كنت أسقط. مارست لعبة الكذب هذه مع صاحب البار، الشاذ جنسيًا، لذلك استطعت أن أستمر في عملي مدة خمس عشرة سنة. إن هؤلاء الرجال يغيرون البارميدات مثلما يغيرون التقشيرة - حاشاكم -! حياتهم عادة تكون قاسية، يبدأون كجراسين، وماسحي حذية. ثم بعد ذلك يمتلكون البارات وأشياء أخرى. أعرف الكثيرين منهم. عندما تصبح الثروة بين أيديهم فإنهم لا يصدقون أنفسهم. ذاكرتهم تعود بهم إلى ماضيهم. يخشون أن يكون مستقبلهم مثل الماضي لذلك تجدهم ينافقون. جبناء أحيانًا، وأقوياء في مواقف ضعف الآخرين. يحتاطون دائمًا مع الناس، في الوقت الذي يظهرون فيه لهم صداقة زائفة. مع هذا النوع من البشر يجب أن تكون ثعلبًا لكي تكسب ثقته. لم أكن أمارس أي غش. سددت لصاحب البار فمه بجديتي. لكن الكذب شيء رائع أحيانًا. عندما تمارس الحقيقة أو تقولها، تجعل الناس يشكّون في صدقك. فقليل من الملح في الطعام يجعله لذيذًا. لم يكن يفكر ذلك العجوز أبدًا في الزواج. ولكنه مرة اقترح عليّ ذلك. ولماذا لا أفعل؟ سوف يصبح البار ملكي. والديك لا يبيض إلا مرة واحدة كاذبة في الحياة. يكفيني أني استطعت

أن أعطي القدرة للديك لكي يبيض. تزوجته وكان أكبر مني سنًا. لم يكن عنده اعتراض على أن أبقى على علاقاتي مع الزبائن. هذا شيء لا يمكن لأي امرأة أن تحلم به. أنا حققته ولم أكن أحلم به. ثم يبيض الديك مرة ثانية فيموت العجوز وأصبح صاحبة البار. لم يكن له أحد يطالب بالإرث، كان المسكين مقطوعًا من شجرة. غصنًا مرميًا في برية. غصنًا جافًا في خلاء. غير أن البيضتين كانتا فاسدتين. توفي الكتكوتان في المهد. بدأت مضايقات السلطة لي، ورجال الضريبة وسماسرة النهر العكر، بدأوا يخوضون في مائه. لكنني عرفت كيف أتخلص من كل هذه المضايقات فيما بعد. نجوت بنفسي وبعت البار الذي أغلق نهائيًا الآن.

قال وكيل جلالة الملك، الذي كان أحمد الرواد:

- اسمعي أيتها اليهودية الجيفة. إما بي أو بك!

- لكن ماذا تريد يا سيدي؟ كل ما توده موجود، هل تريد فتيات؟ هل تريد أن تشرب؟ ماذا تشرب؟ لن تدفع شيئًا. البار بارك.

- أنا أريدك أنت.

- وخّا، يا سيدي في أي وقت تشاء.

- أنا أريد جلدك.

- ماذا تريد أن تفعل بجلدي؟ خذ لحمي يكن ذلك أفضل.

- أنا لا أحبك لأنك عاملتني باحتقار مرارًا.

- والله يا سيدي لا أذكر. ربما حصل لك ذلك في بار آخر.

- وقال الكوميسير:

- يا ابنة الكلبة، حتى أنت أصبحت ثرية، إنكم تثرون على ظهورنا. كل ما نجمعه نحن بعرق جبيننا تخطفونه أنتم منا بالحيلة.

- ولكن يا سيدي، إنك تشرب مجانًا في أغلب الأحوال.

- الزبائن هم الذين يدفعون، أما أنت أيتها الكلبة...

وذات يوم افتعل الكوميسير معركة في البار، تمت إجراءات خاصة فأغلقوه مدة خمسة عشر يومًا. ثم قال مفتش الشغل، ثم قال مفتش الضريبة، ثم قال مفتش الصحة، وقلت أنا: «يجب أن أتخلص من هذا البار، لا بدّ أن أبيعه». الآن أنا مستريحة. أملك عمارتين. ليس ضروريًا أن يمارس الإنسان تجارة من ذلك النوع. إني أعيش دون أن أدفع ضريبة. الكوميسير يتقبّل قدميَّ، القائد يحميني وعمر يؤنسني. وكانت والدتي دائمًا تقول:

- لا تحبي من الرجـال إلا مـن كـان قاسـيًا معـك. إن في قسوتهم يظهر حبهم لك. والقسوة هي غير العنف.

ربما كان ذلك صـحيحًا، لم أجـد الـصدق إلا في الرجـال الذين كنت أعتقد أنهم أجلاف. هـؤلاء الرجـال الطيـون لا يعرفـون كيـف يخاطبونـك بكلـمات مختـارة. إنهـم يتحـدثون بعفويـة. ولكــن مــواقفهم الإنــسانية هــي التــي تــبرهن عــن نواياهم، إنهم يتصرفون دون أن يتكلموا. كثـيرًا مـا لا يكـون كلامهم مطابقًا لأفعالهم. لا يعرفون كيف يعادونك. ولكن في اللحظة الحرجة تجدهم سباقين إلى مساعدتك. آه! إن عمر من هذا النوع. تجربتي الكبيرة مع الرجال تعطيني هـذا اليقـين. لم أكن أعتقد أبدًا أنه في يوم من الأيـام يمكنـه أن يكـون مخادعًـا ولن يكون. هذا النـوع مـن الرجـال أعطيـه كـل شيء. لـيس ضعفًا أن أعطي كـل شيء. ولكـن مـن الـضروري أن يعطـي الإنسان لإنسان آخر يستحق عطاءه. عمر يـستحق كـل شيء. هل أنا أحب؟ لا أدري ولكني أحـس أنـه أقـرب إليّ مـن أي رجل آخر. مرارًا وقفت بجانبه في أحـرج المواقـف. حاولـت عدة مرات أن أفتح له المجال لكي يصبح رجلًا آخر. ولكنه لا يمكن أن يكون غير ما هو كائنه، وعلى كل حال، فهو رجـل، حتى بدون تلك الأشياء التافهة التي يعتقد الناس أنهـا تـصنع

الرجل الحقيقي. كاد مرة أن يقع في خطـأ. سـمعت أنـه يحـب إحدى الفتيات اللواتي يرتدن بيتي. طردتهـا للتـوّ ولا أعـرف ماذا فعل الله بها اليوم. لكنني متأكدة أنها قطعـت علاقتهـا بـه. كل شيء أريده إلا أن يحب امرأة أخرى. قلت له:

- يبدو أن رائحة علاقتكما بدأت تفوح.

- إني لا أحبها.

- كل شيء أقبله إلا أن تحبها. افعل معها ما تشاء لكن لا تحبها.

- كيف يستطيع إنسان أن يفعل شيئًا مع إنسان لا يحبه؟

- افعل مثلما يفعل الرجال. لقد تركوا قلـوبهم في أمـاكن معينة وأغلقوا دونها الأبواب والنوافذ. دع قلبـك أنـت أيـضًا هنا. سوف أخبّئه لك في مكان أمين، عـلى الإنـسان ألا يلعـب بقلبه وإلا ضاع منه.

- إن قلبي موجود في مكان معين.

- أخشى أن يكون عند تلك الكلبة.

لقد تعلمت كيف أحافظ على قلبي. استرددته مرارًا بعـد أن كان قد ضاع. لكن أشياء مثل هذه قلما تـضيع، إنهـا تعـود إليك أحيانًا مثخنة بجراح كثيرة، غـير أن الجـروح يمكـن أن

تلتئم. وإذن؟ ماذا يمكن لعمر أن يفكر فيه بعد الـذي يعيـشه اليوم؟ إنه لا يـتيقظ حتى ساعة متأخرة من النهار. ثروتي هي ثروته. ثـم أني لـست عجـوزًا حتـى ولـو كـان ينـاديني أمـام الآخرين بأمي. أنا أمه. ولد الحاجّة فعل، ولـد الحاجـة تـرك، الشيء الذي يؤلمني كثيرًا هو أني لم أخلف ولـدًا، إن الأولاد في سن معينة هم أمتع مـا يمكـن أن يملكـه الإنـسان، كـل شيء يذهب. ما يبقى هو ذلك الدفء الذي لا يملك أن يقدمه لك أي إنسان سوى الذي يكون أقرب إليـك. وكلـما كـان قريبًـا منك، كان الدفء أقوى.

كانت والدتي تقول:

- حاولي أن يكون لك بيت وأن تنجبي أولادًا.

- لا أستطيع أن أفعل ذلك إلا مع من أحب.

- ألم تجدي رجلًا تحبينه مع أن الدنيا عامرة بالرجال؟

- وجدته ولكن.

لكنه اختفى. وقال الطبيـب إنـه حتـى بـألف رجـل لـن أستطيع أن أحمل من أحدهم. ولم أحمل من كل الرجال الـذين عرفت. وقيل لي مرة يجب أن أزور مكة المكرمة حتى يفـتح الله عليّ بولد. وقال لي يهودي إنك لن تحملي ما دمت تركت دينك ودخلت دين المـسلمين. لكن كم مـن اليهـود الـذين أسـلموا

استطاعوا أن ينجبوا أولادًا؟ صدّقت الناس وذهبت إلى الحج. ذهبت عاقرًا وعدتُ عاقرًا. مكة المكرمة لم تعطني ولـدًا. فـالله هو الـذي يعطـي الأولاد لمـن يـشاء. وهـو أيـضًا يـرفض أن يعطيهم لأي كان. تلك حكمته، ولـيس لمخلـوق أن يتـدخل فيها. التقيت بكثير من الحاجات كنّ أيضًا لم ينجبن. بعـضهن أيضًا كن يتاجرن بالذهب. واحدة كانت تحب مطوفًا سعوديًا. وتحج من أجله كل سنة. وكان هـو يحـج إليهـا طـول العـام. كانت امرأة ثرية من صفرو توفي عنها زوجها وترك لها فنـادق في فاس وطنجة. أنا حججْتُ من أجل الإنجاب ومن أجل أن يغفر لي الله كل ذنوبي السابقة واللاحقة. وفي الحج لم أرفث ولم أفسق، ولذلك عدت كيوم ولدتني أمي. لكنـي عـدت أيـضًا عاقرًا. الآن لم تعد لي رغبة في الإنجاب. كل شيء له وقته، وإذا فات وقته فاتت قيمته وأصبح كطعام بلا ملح.

قال لي عمر مرة:

- إياك أن تنجبي منـي يـا شـارفة. سـوف يكـون ذلـك فضيحة كبرى.

- أنا لا ألد. هل تصدقني؟ لو كنـت أنجـبْ لكنـت قـد أنجبت أبناء في سنك يا بغل.

- إن أحابيلكن كثيرة.

- الأحابيل لا تكـون إلا في موضـعها. لا أحـد يريـد أن يلعب بالنار سوى الشيطان، هل تعتقد أن الحاجة شيطان؟

- كانت حواء قد تآمرت معه.

- أعوذ بالله. هل تقول هذا الكلام لأمك الحاجة؟

- متى كنت أمي يا شارفة؟

كم كان عمر خوافًا رعديدًا. لم يصدق إلا بصعوبة أنني لا أستطيع أن أنجب ويبدو أنه الآن استراح من تلك المشكلة. ثم إنه كيف لامرأة في سني أن تحمل من رجل في سنه. يا للحمق!

تذكرت أيضًا أن السي العربي كان يخشى أن تنجب منه والدتي بالرغم من أنه كان يحبها وكانت تحبه بجنون، الفرق أنها كانت أصغر منه سنًا، أما عمر فهو أصغر مني.. أتساءل كيف أن الرجال يخافون من الإنجاب. وما الحياة بدون أولاد. صحيح أن السي العربي كان مثقلًا بالأبناء من زوجته الكحلاء الزيتونة. ولكن كل واحد يزداد في الحياة برزقه. لقد كان والدي مجرد إسكافي يرقع البلاغي في المدينة القديمة وأحيانًا يشتغل بخياطة المضارب، ولكني مع ذلك ازددت برزقي. ها أنا أملك ما لو كان أبي يعرف أني سأملكه لبقي على قيد الحياة. ولو عرفت أم عمر أن ابنها يعيش الآن حياة طيبة لأكثرت من

إنجاب الأطفال، وأطلقتهم في الأرض يسعون كالهوام، كل دابة إلا وعلى الله رزقها. قالت أمي ذات يوم وهي تترجرج في شحمها للسي العربي:

- آه! كم أتمنى لو أنجب منك ولدًا يا بو أكتاف.

- وماذا تفعلين به؟ ماذا سوف يأكل، يكفي أن أعيل أبناء تلك الكحلاء.

- كل واحد يزداد برزقه.

- أنا لا أوافق. يجب أن تستعملي أعشاب العطار باستمرار. تجنبي أن تحملي.

- إن الأعشاب قد تضر بصحتي.

- لكنها لم تضر بكل النساء اللواتي استعملنها.

ولم أكن أعرف لماذا كانت أمي تصر على الإنجاب، كانت نفسها في طفل ذي كتفين. ولم أكن أعرف أيضًا، كيف أن هذا الهاجس ظلّ يراودني أنا نفسي. لا بدّ من أن أنجب طفلًا، غير أن الله لم يرد لي ذلك. ولا شك في أن كل امرأة تريد أن تنجب أكبر عدد من الأولاد. ربما كان الإنجاب هو أكبر قدرة على الاستمرار في الحياة. فقد عرفت مجموعة من المومسات اللواتي كن يرتدن البارات والملاهي الليلية ويصررن على تفريخ

الأطفال الملونين، ويوزعنهم في كل أحياء الدار البيضاء. كم من ابن حرام أصبح رجلًا مهمًا في الدولة اليوم، أصبح منهم حتى الوزراء. أليس كل واحد يزداد في هذه الحياة برزقه؟ غير أن سيدي ربي هو الذي يريد كل شيء. حكى لي القايد أنه استطاع أن ينجب ثلاثة أطفال دفعة واحدة من زوجته الأخيرة. كان كل الأطباء يقولون لزوجها الأول إنها لا تستطيع أن تنجب، ولكنها عندما طلّقت وتزوجت القايد، انتفخت بطنها في الأشهر الأولى. سبحان الله! وولدت له أطفالًا أجمل من الدمى! إن الله أعطاه وأعطاه فبصحته وبصحتها، والله إذا أراد لامرأة أن تنجب فلا حاجة لأن تزور طبيبًا أو ساحرًا يهوديًا أو فقيهًا أو وليًا صالحاً. قلت لعمر مرة:

- يجب أن تنجب لي ولدًا أو ولدين من هؤلاء اللواتي يرتدن بيتي. دعني أتكفل بالأمر.

قال عمر:

- أنت تريدين أن تدخليني السجن. أنا لا أطيق أن أنجب ابن حرام.

- كل الرجال وكل النساء ينجبون أولاد حرام. يكفي دسّ بضعة دراهم في يد شخص ما وتحل المشكلة.

- أنا لا أريد ذلك. عندما تختارين لي زوجة شرعية فإني إذ

ذاك أنجب منها.

- لكني أخشى أن تحبها.

- المهم أن تكون شرعية. مسألة الحب هذه تجاوزتها. ما عاد لقلبي أي منفذ تدخل منه امرأة.

- حتى أنا.

- حتى..

- قلها.

لكنه ضرب الباب بقدمه وخرج. وكنت أودّ صادقة أن ينجب لي ولدًا أو ولدين. ولكن رأسه مثل الحجر، إنه لا يفعل إلا ما يريد، وما يمليه عليه مخه، إذا كان له مخ. حاشا. إن له مخًا وعقلًا. سامحني يا رب. ربما كان له أكبر مخ. لكنه أحيانًا يصغر حتى يصبح في حجم حبّة خردل. كلنا تكبر أمخاخنا أحيانًا، وتصغر في أحيان أخرى. ما وقع مثلًا تلك الليلة مع رحّال، كافٍ لكي يبرهن على أن مخه أكبر من مخي. تلك الليلة صغر مخي حتى أصبح في حجم حبة خردل، وكبر مخه حتى أصبح في حجم جبل. قلت له مرارًا أن يصعد إلى السطح وأن يلقي بمتاع ذلك الشاب إلى الخارج ولكنه أصرّ على ألا يفعل ذلك. كان يشرب بكثرة وبسرعة يقول: «لا يجب أن أفعل ذلك. إنه شاب مسكين. سوف يدفع لك ثمن الكراء في أي

وقت تتاح له الفرصة». ظل يشرب، وتحت تأثير الخمر، صعد إليه ووقع ما وقع. لم تكن الخمر وحدها هي التي فعلت ذلك. (اللهم أعطنا العقل!) كنت أيضًا أحرضه وأحثه.. لعنة الله على الفلوس. كان الناس كثيرًا ما يفتشون عن شقق. الكراء أصبح غاليًا. ولا يمكن لإنسان أن يجد حتى غارًا يمكن فيه. قال لي الكوميسير إن سبب ذلك هو حرب الصحراء. وأنا لا أعرف في تلك الأشياء. أعرف فقط أن مخي يصغر أحيانًا، وتلك الليلة صغر أكثر. بدا لي أني لو طردت رحّال لكسبت من وراء تلك الغرفة في السطح الشيء الكثير. ولذلك حرضته فيما بعد على قتله. لكن مخ عمر كان كبيرًا. صحيح أنه ذهب وتشاجر معه. لكني متأكدة أنه لم يبذل مجهوده لقتله أو لإلقاء متاعه من الغرفة. في عمقه يكون إنسانيًا أحيانًا. حسنًا فعل. ذلك شاب لطيف ومسكين، ولذلك فسيدي ربي لم يخيبه أبدًا. ها هو اليوم يأكل ويشرب ويتمتع بالحياة، رغم أنه لا يشتغل. الله يفتح عليه دائمًا. وفوق هذا وجد امرأة تحبه. إنها ليست امرأة بمعنى الكلمة، ولكنها مع ذلك عرفت كيف تحب وتضحي من أجل شاب قد يستحق ذلك. أنا لا أعرفها كثيرًا، ليست لي علاقة بها. دخلت عندنا مرة أو مرتين. وكانت تبدو محتشمة وبنت حياء. ويبدو أنها أرغمت على ذلك العالم الذي تعيش فيه، أقصد عالم أولئك النساء الفاسدات - حاشاكم

وحاشا تراب أرجلكم! – لكن ذلك غير مهم. كلنا فاسدات. وقيل فينا إن النساء ضلعة عوجاء، هذا صحيح. لأننا ناقصات عقل ودين. ولو لم نكن كذلك لما حرضت عمر على فعل ذلك مع رحال. وها قد فتح الله عليه. سمعت أنه أصبح يشتغل في أحد الملاهي الليلية، ذلك شيء رائع. لو كان له عقل – وما أظن إلا كذلك – لاستطاع أن يربح الشيء الكثير من عمله ذاك. أنا أعرف جيدًا أية أموال تنفق في تلك الأماكن، وأية أموال تكسب بالحق و بالباطل. ربي يجازي تلك الطفلة غنو، لأنها هي التي أوجدت له ذلك العمل، ولا شك أنهما سيتزوجان ذات يوم، وذلك خير جزاء، أن يتزوج الإنسان إنسانًا يحبه. الله على الحب. أحببت لكنه اختفى من حياتي. ما أزال أشتم رائحته الآن، حتى بعد مرور تلك السنوات الطوال، رائحة عمر تشبه رائحته إلى حد بعيد. الحب شيء كبير عند الله. ومن أحبّ بصدق جازاه الله وزوجه وسهل عليه أموره في الدنيا قبل الآخرة، ومهما يقل عن امرأة قليلة العقل، فإنها عندما تحب تصبح أكبر امرأة في العالم.

قلت لرحّال:

– هل أنت متأكد من تلك الطفلة غنو تحبك؟

– لا أدري. ولكن يظهر ذلك، لماذا تفعل كل شيء من أجلي مع أني عاطل؟ أنا أيضًا أحس شيئًا تجاهها لا أعرف

ما هو.

- ذلك هو نفسه.

- ما هو؟

- الحب. حافظ عليه.

- لا أدري.

- يجب أن تدري.

وتساءلت كيف لا يعرف الإنسان في سن معينة هل هو يحب حقًا أم يعطف أم يحقد؟ أنا أيضًا وقعت في ذلك. عرفت فيما بعد أني كنت أحب أو أكره أو أحقد أو أحس بأي شيء آخر. يا سبحان الله! كل شيء لا يدركه الإنسان إلا بعد فوات الأوان. لكن هناك أشياء قد تدرك في حينها. وإن كانت غالبًا ما تفوت على أهلها، لا فوّت الله عليكم أشياء أنتم أحوج إلى إدراكها في وقتها. وقد فوّت الله عليّ أشياء لن أدركها حتى لو انطبقت السماء على الأرض. وكنت أنا سبب ذلك. هذا شيء أعترف به. وما يضيرني لو اعترفت. وأنَّبْتُ نفسي على ضياعها. وقال عمر:

- إن رحّال يحب تلك الفتاة. لقد قال لي ذلك مرارًا.

- خير له أن يحبها، لن يجد فتاة أحسن.

- لكن يمكن أن تتدخل أشياء أخرى خارج طاقتهما لتفسد عليهما ذلك الحب.

- ذلك محتمل. ولكن نفسي تقول لي إنه لن يفرقهما إلا القبر. إلا إذا اختفى رحال كما اختفى ذاك.

- من ذاك؟

- آه! ماذا أقول؟ شخص كان يحب امرأة ثم اختفى.

- هل أعرفه؟

- لا يمكنك أن تعرفه أبدًا.

- هل يرتاد هذا البيت؟ هل هو واحد من الزبائن؟

- لا ليس زبونًا. وهو أكثر ترفعًا عن ارتياد مثل هذه الأماكن.

- أين يسكن إذن؟ هل هو جارنا؟

- إنه يسكن هناك. لكنه اختفى ذات مرة. لن تستطيع معرفته مهما حاولت أن أحدثك عنه. أنا وحدي أعرف سره.

- لا شك أنك تمزحين؟ أو أنك تقصدين أني سوف أختفي ذات يوم.

- لا أقول ذلك، ولكن له رائحة تشبه رائحتك..

- هل لك واحد في حياتك يا شارفة؟

- حاشا يا عمر.

كيف يمكن للإنسان أن يخفي أشياء، وقد كان هو السبب في خلقها. كل ما يقع لنا نحن طرف في وقوعه سواء أردنا أم كرهنا. إذا تزوج رحال وغنو فهما السبب في ذلك. وإذا وقع شيء لعمر فلا شك أني كنت سببًا خفيًا في رحيله. يا الله! كم نكون سببًا في وقوع أشياء كثيرة ونحن لا نعرف ذلك إلا بعد فوات الأوان.

3

باب النساء

لماذا سُميت النساء نساء؟ قال والدي: لأن الله نسيهن من رحمته. واك.. واك! هذا أبلغ تعبير سمعته في حقهن. لولا تلك الحمقاء الصغيرة لما كنت قد غادرت درب الطوارق في مراكش. لكنت قد أصبحت موظفًا واسترحت. ولكن لا يهم ها أنذا أعيش ملكًا. إن بعضهم يتقول فيّ. كلام كثير أسمعه. منهم من يثق بكون الحاجّة والدتي. بعضهم يحلف بأغلظ الأيمان على أنها ولدتني من رجل من مكناس، هجرها وتركني لها عالة. قال واحد ذات مرة:

- هل تعرف من هو أبوك؟

- لا. أمي قالت إنه مات وأنا صغير جدًا.

- إن أباك من علية القوم. ربما كان وزيرًا. تركك وترك أمك الحاجّة لسبب ما.

كم كان كذّابًا هذا الرجل. متى استطاعت الحاجة أن تنجب حتى فأرًا يا بغل؟ أصل كل شيء في الحياة أن يبقى الناس في وهمهم يعمهون. وهكذا فالحاجة والدتي. ولا يهمني أن تملك بيتًا للدعارة. فكل الناس داعرون. وشريف النفس لا يملك عمرًا طويلًا. لو لم تكن الحاجة لكنت الآن في سجن غبيلة أو سجن علي وومن. عسير جدًّا أن يجد له الإنسان ثقبًا ينفذ منه إلى مجتمع الدار البيضاء هذا. الحياة في مراكش تمر في بطء وهريد الناب. أما هنا فكل شيء مغاير. صدمت أول الأمر لكني تعودت. كل شيء يتعود عليه في حينه. حتى العلاقة بين شاب وامرأة مسنة كهلة شيء يتعود عليه. الناس يقولون، وينتقدون أفعالًا ما، لكنهم يرتكبون جرائم، ويفعلون أشياء لا يستطيع فعلها حتى الشيطان. آه! يا للشيطان! لعنة الله عليه في حضوره وفي غيابه. وهل هناك شيطان أكثر من امرأة؟ فهي التي تطردك من مراكش، وهي التي تستطيع أن تضمن لك حياة في الدار البيضاء، وتقف حاجزًا في وجه رجال البوليس. حتى الشيطان لا يستطيع أن يقف في وجه هؤلاء. لكنها هي تستطيع ذلك.

وقالت الحاجة:

- لا تعتقد أنني فعلت هذا من أجلك ولكن من أجلي. إنني أريدك لي.

- بأي معنى يا حاجّة؟

- بكل المعاني. وعليك أن تتعلم كيف تتعامل في الحياة، هل تعتقد أن الدنيا سائبة؟!

قلت للحاجّة:

- لن أنسى لك هذا الجميل. أنت أنقذتني من أيديهم. إن ظروف الحياة صعبة ولكن رجال المخزن لا يعرفون ذلك.

- اعرف لنفسك بدل أن يعرف لك الآخرون. ثلاثة أشياء يجب أن تحذر منها: النار والبحر ورجال المخزن. لا تثق بها أبدًا.

- يقال أربعة أشياء يا حاجة. الشيء الرابع هو المرأة.

- أضفها إذا شئت. لكن لا تنسَ المخزن.

تبدو الحاجة في الظاهر امرأة لا تهتم بشيء، لكنها في الواقع تهتم بكل شيء. شأن كل امرأة. غريزة الفضول تمتلك عليها نفسها وحواسها. بقدر ما تبدو الحاجّة عاطفية وحنونًا، فهي حقود وممعنة في الحقد. تنقلب عاطفتها بسرعة وبدون سابق إنذار. هذا ما كان وقع لها مع ذلك الشاب اللطيف،

طيب القلب رحّال. لو كنت قد اتبعت رأيها لكنت قد قتلته أو قتلني. يا للكلبة! وبعد ذلك أصبحت تحنو عليه، هو يستحق ذلك طبعًا. أقول: إن الحاجة تتقلب. ما رأيت امرأة مثلها تتقلب من حال إلى أحوال. يا الله! هل كل النساء هكذا. لا أعتقد. ولكن مع ذلك، هناك من يعتقد أنهن كذلك. ذات ليلة زارنا سي لحسن. رجل حمّال في الميناء لكنه أقرع وبفلوسه. أعتبره صديقًا، لأنه ليس من تلك العينة الأخرى التي تزورنا. عفوًا، تزور الحاجة. سكرنا وسكرت المرأتان فقال سي لحسن وهما تسمعان:

- اسمع يا عمر. لن أبدّل صديقًا بكلبة واحدة من النساء. كلهن يتشابهن ولا يمكن أن نثق بهن. إنهن يستطعن أن يعنك وأنت بكامل وعيك.

- ماذا تقصد سي لحسن، فاطمة وحادة أم كل النساء؟

- كل النساء.

- حتى زوجتك وبناتك.

- حتى زوجتي وبناتي. كلهن يتشابهن.

ياه! هل معقول ما يقوله سي لحسن؟ لكن الحاجة ونساءها يتشابهن. ولا أدري ما إذا كانت بقية النساء تتشابه. في تلك الليلة نفسها سكتت فاطمة وحادة، ربما كانتا متيقنتين

من أن كل النساء يتشابهن. وطبعًا، هذا لا يعني أحدًا بقدر ما يعنيها والبقية. وما أنا إلا رجل يعنيني ما يعنيني في الحاجة. فهي تتبدل وتتقلب. وأنا أعرف ذلك جيدًا فيها. لكن أن تعرف أو لا تعرف فهذا يخصك وحدك. ومعرفتك بأمور أو عدم معرفتك بها شيء ينفعك أو يضرك ولا ينفع أو يضر أحدًا غيرك. أن تكون الحاجة متقلبة فهذا يعنيني وأن تكون النساء متشابهات فهذا يعني سي لحسن. والدار البيضاء مدينة كبيرة، وفيها أناس يعرفون لأنفسهم ولا يعرفون لغيرهم. وفي مراكش، الناس يعرفون لغيرهم دون أن يعرفوا لأنفسهم. ولذلك كثر فيهم الكسل وهريد الناب، والحنين إلى من أنشأ لهم ساحة يجلدهم ويعلقهم فيها. حمدًا لله وشكرًا على ما أعطى لكل مخلوق من المعارف والعواطف آمين! كلٌّ يحب ما ومَنْ يشاء، وكلّ يعطف على ما ومَنْ يريد. هم في مراكش يحبون شاعرًا كان يشتمهم ويمدح أسيادهم، وهنا في الدار البيضاء يحبون المال والفسق وكل واحد عينه في زوجة صاحبه. لقد عرفت كل شيء، ولكن الحاجّة لم تترك لي ما أعرف. إنها تعرف كل شيء وكل شيء، وأيضًا كل شيء، ولم يبق أي شيء لم تعرف فيه الحاجّة شيئًا. لا أدري، ربما لم يكن ارتباطي بها له علاقة بفلوسها. وإذا لم يكن كذلك، فما هو إذن؟ أحيانًا أتصور أني لا أستطيع أن أهجرها حتى ولو كانت

بدون فلوس. آه. ماذا أقول. هل سقطت؟ لا يهم. كل حصان كبا أو سقط، ليس بالضرورة أن يبقى على الأرض. لقد كانت طفلة مراكش سببًا في سقوطي. لكني استجمعت قواي. ومع ذلك لا أستطيع أن أحقد عليها. ربما كنت أحبها. ويبدو أنها كانت تحبني أكثر. لو وقع ما وقع لي في مراكش، هنا في الدار البيضاء، لكان الأمر غير ذي بال. ولكنهم في مراكش يفضلون أن تغتصب صبيًا على أن تفعل ذلك بامرأة. ولذلك فررت بجلدي، وخير لي أن تغتصبني امرأة شارفة عجوز، من أن أغتصب فتاة، تجنبًا لأية عواقب، خصوصًا إذا كان شخص ما من عائلتها ينتمي إلى رجال المخزن. كما كان الشأن بالنسبة لكنزة، لعنة الله عليها وعلى مثيلاتها، إنهن لا يملكن حتى القدرة على ضم أفخاذهن إلى بعضها. في لحظة واحدة يرتخين ويصبحن مثل شحمة الأرض وبعد ذلك يقلن لك:

-- ناري فعلتها.

ثم يبدأ البكاء واللطم على الأفخاذ والأحناك. أتذكر كنزة ذلك اليوم. لم تكف عن البكاء طيلة أكثر من ساعتين. ظللت أهوّن عليها ما وقع دون جدوى. كنت أعرف العواقب. يا إلهي! عرفت فيما بعد، إنهم في أوروبا يأخذون فتياتهم، في سن معينة لكي تُفتض بكارتهن. وهنا ماذا يفعل الحلوف؟ يأخذون مواطنيهم إلى السجن خمس سنوات من

أجل نزوة مشتركة. خمس سنوات يستطيع فيها ذلك الشاب أن ينهي دراسته ليعود بالنفع على أولئك الحلوف. ولذلك أصبحت الفتيات يؤتين من الخلف فانتشر ذلك في البلاد بين العباد.

وقالت الحاجة:

- لن تجد فتاة تفعل الحب مثلي.

- أن يمدح الإنسان نفسه ليس عيبًا.

- هل تتهكم يا بوكتاف؟

- أقول الحق. أستطيع أن أمدح نفسي أيضًا. ولا أحد يمنعني من ذلك.

- أريد أن أقول ألا تجد فرقًا بيني وبين أولئك؟

- من أولئك؟

- الصغيرات القذرات.

- لا أدري. لكن لكل فاكهة طعمها، وما كل الفواكه تتشابه.

- الفتيات الصغيرات غبيات في فعل ذلك الشيء.

- ولكنهن...

- لا تعاكـني.

- لن أعاكسك. لكن من أدراك؟

- المرأة تعرف المرأة.

غير أن للصغيرات طعمًا رائعًا، رائحتهن الخاصة تنفذ إلى أعماق الرجل مثلما تنفذ رخية روائح الزهور الجميلة في الربيع. كانت كنزة من ذلك النوع، لكنها للأسف دفعتني إلى السقوط، لو لم تكن فقط تنتمي إلى أسرة مخزنية لسارت الأمور سيرًا آخر. لبقيت في مراكش، ولما زرت السجن هنا في الدار البيضاء. غير أن كل شيء أحيانًا يمكنه أن يتم، دون أن تكون لنا يدٌ فيه. ومع ذلك، فليس بالضرورة أن كل حصان يتعثر سيظل ملقى على الأرض، لقد سقطت ونهضت وإذا كنت قد نهضت، فإن بعض أعضائى، من غير شك، ما تزال توجعني.

الحاجّة تفتح فمها وتتكلم. أما أنا فلا أريد أن أتحدث كثيرًا، أريد فقط أن أعيش، كل النساء يتشابهن، وأيضًا كل النساء يختلفن عن بعضهن ولا يعنيني بقدر ما يعنيني إلا كل ما يعنيني.

4

باب التي تكْره أباها وتحبُّ رحَّال

لم أعرف أحدًا مثله. رجل فحل. صامت لكنه يتحدث في الأوقات التي يريد أن يتحدث فيها دون أن يكون حمارًا مثل جميع الحمير الذين يتحدثون بكثرة عن أنفسهم، فوق هذا، إن رحّال يتشبث بي رغم كونه يعرف أنني كنت مجرد قحبة في حي مبروكة. لكني والله، لم أكن قحبة. كنت أغمض عيني وأتركهم يفعلون بي ما يشاؤون. كنت أتقزز من رؤيتهم لكن لقمة العيش هي التي دفعتني لفعل ذلك. هذا شيء آخر، لا داعي لكي أتحدث فيه، رحّال رجل شهم. ومن أجله سوف أدفع كل حياتي. إنه يكره والدي كما أكرهه. كم تمنيت قتله، وكم تمنى رحّال نحره من قفاه مثل جمل. رحال يفهمني كثيرًا،

وله سوف أخلص إلى نهاية حياتي. والدي لم يخلص لأمي. تركنا وذهب ليعيش مع قحبة في درب ميلا. من يدفع ثمن الكراء ومن يدفع نفقات البيت على أطفال، زُغْبِ الحواصل لا ماءٌ ولا شجرُ، كما علمني أستاذ العربية الذي نكحني لأول مرة. لعنة الله عليه، من أجل خمس نقط في مادة اللغة العربية. ياه! شفت الشيء الذي أتمنى أن يشوفه أعداؤكم في الدنيا قبل الآخرة. كنت أتصور أني سوف أرى في حياتي أحسن من الأستاذ، لكنني وقعت في من هم أكثر شرًا. وبعد ذلك يقولون إنها امرأة غير محترمة. ما هو إلا جسد أشتغل به كما يشتغل الإنسان بيديه لكي يعول نفسه ومَنْ هم في حاجة إليه. أما الشيء الآخر، الحب. فهذا أحتفظ به لنفسي ولا أعطيه إلا لواحد مثل رحّال. ولا يبدو أن جسدي هو في متناول أي رجل. على العكس هو جسدي، أستطيع أن أتحكم فيه متى أشاء.

قال رحّال:

- أنت لا تهتمين كثيرًا بعائلتك.

هذا رجل طيب، يفكر فيّ وفي عائلتي بصدق. رزيت آخرين لم يكونوا يفكرون إلا في جسدي.

- كيف ذلك؟ إني أدفع لهم كل أسبوع.

- ليس ما تدفعينه كافيًا. ادفعي أكثر إذا كان ذلك ممكنًا.

- أنت تعرف ما أتقاضاه كل ليلة.

- لا أستطيع أن أخمن. لكن حاولي، من جل إخوتك فقط.

- لطالما أتخوف من أن يعود ذلك الكلب أبي وينتزع منهم تلك النقود البسيطة لينفقها على شيخته في درب ميلا.

- إنه لن يستطيع أن يفعل ذلك.

- من أدراك؟ أنت لا تعرفه.

- لو كان أبي لقتلته. هذا النوع من الرجال يستحق القتل.

- أنا أيضًا أتمنى ذلك. لكني مع الأسف لا أستطيع تنفيذه.

عندما تعرفت على رحّال، اكتسبت مناعة ضد بعض الشرور في العالم، أحب فيه طريقة تفكيره، إنه لا يحب الأغنياء، كما لا يحب المفسدين والأشرار مثل والدي. والده هو، لم يكن شريرًا ولكنه كان غبيًا وكسولًا، لا يملك

ولو حبة خردل من ذكاء لتحويل بعض منافع الحياة لصالحه.

لم يكن حبي فقط لرحال هو الذي جعلني أبحث له عن عمل، حتى ولو اقتضى ذلك أن أغمض عيني وأفتح فخذي، ولكن لأنه كان رجلًا حقيقيًا، إنسانيًا، قلبه ودمه مع نوع من النساء والرجال.

قال رحال:

- لو ظلت الأحوال هكذا لأمكننا أن نُغير هذه الغرفة فوق السطح، نكتري ثلاث غرف في مكان من الدار البيضاء.

- وسوف نتزوج.

- ذاك أمر ثان. سوف ننظر فيه فيما بعد.

- الحاجة أصبحت تتشبث بنا أكثر. فثمن الكراء يُدفع لها بانتظام، إنها تعتبرني ابنتها، ولكنها أحيانًا تنظر إليّ نظرة امرأة لامرأة. قد لا تفهمون ذلك. ولكنا نحن نحسه. هذا غير مهم بين امرأة وامرأة، ما دام الأمر يتوقف هنا، ولا يتجاوزه إلى رجل. أنا لست امرأة في سنها، هي تعرف أكثر مني في كل شيء. لكن يبدو لي أن ما أعرفه لم تعرفه هي قط في حياتها. يبدو أن حياة ذلك النوع من النساء كانت غريبة ومختلفة. هن

يتحدثن عن الميركان والفرنسويين. أما نحن فشيء ثان. عندنا عرب البترول الذين لا ينتعظ عضوهم إلا إذا وضعت إصبعك في إستهم. والعياذ بالله! شحال فيهم من فساد، رغم أنهم جاؤوا من البلاد المقدسة. ونراهم يتحدثون في التلفزيون عن أمور الدين كتحريم الخمور والزنا، ولكنهم يدلقون زجاجات الويسكي على صبايا فقيرات من الحي الحسني أو عين الشق أو درب السلطان أو المدينة القديمة. ياه! رحّال لا يحبهم كثيرًا، وأنا عمري ما نمت مع واحد منهم. أعافهم مثلما تعاف الجيف. لكني شربت مع كثير منهم وتقاضيت وسرقت لهم فلوسًا كثيرة. اللهم فينا ولا في الأوروبيات الكافرات. على كل، بين مسلم ومسلمة يهون الحال.

صعدت الحاجّة عندنا ذات ظهر، كانت تبدو عليها علامات السكر. أخرجت علبة الكنت وناولتنا سيجارتين، كنت مع رحّال في الفراش. الآخرون لم يكونوا في الغرفة. كل ذهب إلى حيث لا يمكن أن ندري. جلست الحاجة على حافة السرير وقالت:

- يبدو أنكما أصبحتما غنيين. إني أعرف الأموال التي تنفق في تلك الأماكن.

وتوجهت إلى رحّال:

- هل أنت مسرور بعملك الجديد؟ أعمل عقلك واعمل علاش ترجع.

- الرجوع لله يا حاجّة. قال رحّال.

- صحيح. الرجوع لله. لكن اعمل يا عبدي وأنا أعينك.

قال رحّال:

- لا يمكن للإنسان أن يصبح غنيًّا ووراءه طابور من الإخوة.

- زغب الحواصل لا ماء ولا شجر (تذكرت الأستاذ).

وقال رحّال:

- بأي لغة تتحدثين؟

- هذا الشيء تعلمته في المدرسة، يعني بالضبط ما تقول.

وشعرت بالخجل من نفسي إذ قلت هذا الكلام، شعرت بأني أسأت إلى رحّال من حيث لا أدري. لكنه لم يعط أهمية لما قلت. وقال للحاجة مغيرًا الحديث:

- شربت كثيرًا اليوم يا حاجة. أخشى أن يأخذوك هذا المساء إلى قسم المستعجلات لو أنك استمررت في ذلك. أين عمر؟

- هو الذي أسكرنا أثناء تناول طعام الغداء. إنه ينام مثل خنزير الآن. أما البنات فقد تقيأت واحدة منهن كل ما أكلت وما شربت حتى قلنا إنها لا شك مشرفة على الهلاك.

- ياه! كانت حفلة رائعة إذن؟ بأية مناسبة يا حاجة. قلت.

قال رحال:

- كنت تتمنين أن تنزلي عندهم تحت، لو فعلت لكنت في المساء قادرة على تكسير كل الزجاجات والكؤوس على رؤوس الفتيات في الملهى.

- أنا لا أفعل ذلك. أنت تعرف أني أشرب ليلًا فقط. الليل ستار العيوب.

وقالت الحاجة:

- ما لهذا الغرض صعدت إليكما.

قال رحّال:

- لماذا إذن يا حاجّة؟

-

- أود أن أقـول لكـما فقـط. عفـوًا. أن أنـصحكما فقـط. عليكما أن تطردا الآخرين وأن تؤثثا غـرفتكما، وأن تعيـشا في سعادة لأن كل شيء موفور الآن.

- والآخرون يا حاجة، أين يذهبون؟

- سيفتح الله عليهم كما فتح عليك.

- كم زجاجة شربت يا حاجّة، حتى أتأكـد مـن سـلامة عقلك؟

- ليترًا واحدًا من النبيذ، ربما أكثر قليلًا.

قال رحّال:

- الأفضل أن تذهبي لتكملي ما تبقى في الزجاجة وتنامي مثلما فعل عمر.

وقفت الحاجة وهي تقول:

- وخَّا يا وليدي.

وقال رحّال لي بهمس وهي عند الباب:

- لتنامي مع عمر.

كتمت أنا ضحكة، كادت تخرج في ظرف غير ملائم.

وأضاف رحال:

- هل رأيت كيف أن الناس يتدخلون فيما لا يعنيهم؟

- إنها عندما تسكر تفقد كل شعور بما تفعل أو تقول. إنها يمكن أن تنام حتى مع ابنها. ألا تعرف اليهود؟

كانت أشعة الشمس تتسرب من فجوة الباب المفتوح. وقف رحّال وذهب إلى الباب ودفعه دفعة خفيفة بقدمه اليسرى. كم كان يعرف كيف يتحدث ويفكر ويناقش ويحب ويعامل امرأة. إنه رجل حقيقي. لهذا كنت أحبه. وسوف أظل أحبه. بعض الفتيات معنا في الملهى يحاولن أن يحمْن حوله. لكنه لا يعيرهن اهتمامًا. هو أقوى من لذة عابرة. وأحيانًا لا يرغمني على فعل الحب إلا إذا شعر بأن عندي رغبة أكيدة في ذلك. لو فقدته لفقدت ضماناتي في العالم. والدتي أصبحت تحبه دون أن تراه. أخواتي كذلك. ورغم أنه ليس طبيبًا ولا محاميًا ولا قاضيًا ولا كوميرًا ولا عربيًا من عرب البترول، فهو أحسن منهم جميعًا، ويتحدث أحسن منهم.

رجع إلى الفراش بالقرب مني، وقال:

- قومي وهيئي لنا شيئًا نأكله، المساء ينتظرنا. اليوم يوم السبت. سيكون عمل كثير هذه الليلة.

وقفت بسرعة، كانت أوامره صارمة، ولا يمكنها أن تردّ أبدًا. ولا يردها إلا من لا يعرف رحّال جيدًا. أما أنا، فعرفته وأعرفه.

5

باب الحبّ في مراكش

تعطلت الدراجة فجأة عند مفترق الطرق، فنزلت عنها ودفعتها متجنبة السيارة التي كان كلاكسونها يزعق من خلفي. وقفت بين نخلتين عاريتين على الطوار وأنا ألهث. تركت الدراجة متكئة على النخلة وابتعدت عنها أفكر فيما أفعل. لم يكن معي فلس لدفعها للتصليح. المسافة بين الثانوية والبيت ما تزال بعيدة. اقترب مني عمر. تحدثنا عن الدراجة وساعدني على إصلاحها ووصلت إلى البيت، ثم أحببته، ثم اغتصبني، ثم ربطني والدي طيلة أيام وظللت في مكاني أيامًا لا أشرب سوى الماء، ولا آكل سوى الخبز، مثل جروة تمامًا، مثل جروة بئيسة كان يملكها جيراننا وماتت من تلك المعاملة،

وخفت أنا أن أموت لأنني أصبحت أعامل مثل الجروة. فاضطررت أن أحكي كل شيء. وخفت على عمر أن يدخل الحبس فلا يتزوجني. لكنه فرّ إلى مكان معين ولم يتزوجني. وقيل إنه يعيش في الدار البيضاء. والدار البيضاء نساؤها كثيرات وأخشى أن تخطفه واحدة منهن. لهن كثير من الفلوس. إني أشاهدهن في مراكش يرتدين أفخر الثياب ويركبن أفخم السيارات وهن قليلات الحياء. ويشبهن الرجال إلى حد ما، ولا يتحدثن مثلنا، فلهجتهن غريبة مثل لهجة بدو الرحامنة أو بدو قلعة السراغنة. يتحدثن كثيرًا بالفرنسية، ومنهن يكنّ عادة مع أجانب أوروبيين والعياذ بالله. هذا في مراكش عندنا عيب. المغربية مع مغربي حتى ولو كان بياع الفول أو الكرعين في ساحة جامع الفناء. كم أحببت عمر وكم كان يحبني، ولا أعتقد أنه نسيني. أغلب الظن أنه يعود إلى مراكش خفية عن أهلي. ولكن أهلي نسوا كل شيء وتمنوا لو يزوجونني به، لأنهم علموا أنه شاب كان يستحق أن يفعل بابنتهم ما فعل. وأن نيته كانت حسنة، ولم يفعل ذلك إلا لكونه كان يحبني. وقالت والدتي ذات يوم لأختي الكبرى:

- المرأة التي تجد رجلًا يحبها اليوم عليها أن تعض عليه بالأسنان والأظافر. ما كل الرجال يحبون النساء.

وفهمت أنها كانت تعني أختي التي كان زوجها يحبها.

ولا بأس من أن تعنيني أيضًا، أنا متكة الحظ التي وجدت من يحبها لكن الظروف حالت دون أن يكتمل ذلك الحب بالزواج. وأضافت الوالدة:

- كنزة مسكينة، ليس لها حظ. وسوف يأتي لها الله بولد الناس. الله يهدي أباها الذي غضب عندما وقعت لها تلك الواقعة البسيطة. كم أن الرجال لا يفهمون أن كل ذلك شيء عادي. والمرأة المسكينة لها الحق أيضًا في أن تفعل قليلًا من الحب هي الأخرى، مرة مرة، لأنها ليست حجرًا جامدًا، أو صخرًا جلمودًا، الله يهدي من خلق.

بعد عمر لم أعد أعرف ما أفعل بنفسي. لقد علمني الشيء الكثير في الحياة. لم أكن أعرف حتى المدينة التي ولدت فيها. هو الذي أخذني إلى كثير من الأماكن في الضواحي. ذهبنا مرة إلى إسني، وتمتعنا برؤية الخضرة والأشجار وسبحنا في المسبح هناك، وقدم لنا قائد المقاطعة مشروبات على حسابه. كم كان ظريفًا ذلك القائد. لكن عمر لم يحبه. لأن القائد سكر وأخذ يقرب خياشيمه من نهدي، فسحبني عمر من ذراعي وعدنا إلى مراكش. قال عمر إنه يستطيع أن يقتله رغم أنه قائد. فأولئك الكلاب لا همّ لهم سوى السكر وتشمم رائحة النساء أينما كانت، حتى ولو كانت هذه الرائحة قذارة آباط المومسات. وعمر كان رجلًا فحلًا وزوين في كل شيء. والكلمة إذا قالها

فعلها. ولـذلك أحبتـه. ولـو كنـت أعـرف مكانـه في الـدار البيضاء لأخذت من أمي فلوسًا ولاستقللت الحافلة وذهبـت أبحث عنه هناك. ولكـن الـدار البيـضاء كبيرة ويمكنـني أن أضيع فيها. غير أنني مرارًا أحاول أن أقنع والدتي بأن أنتقل إلى الداخليات في الدار البيضاء. ولو ذهبت هناك لقضيت عمري كله في البحث عنه. والعثور على رجل مثـل عمـر، خـير مـن الدراسة. فالدراسة لم يعد فيها نفع. كثـير مـن حملـة الإجـازة يتجولـون في الـشوارع عـاطلين. وقيـل إن بعـضهم انتحـر، والحكومة لا تريد أن تفعل شيئًا من أجلهم. هذا ابـن جيراننـا الذي يحمل إجازة في الحقوق، قضى عامين في الخدمـة المدنيـة، وهو الآن عاطل، يظل يـدخن الكيـف والحـشيش حتـى كـاد عقله أن يطير، خسارة فيه، شاب جميل مثقـف. لكـن لا أدري ماذا تفعل هذه الحكومة عندنا. وهل نفس الشيء يقع في بلدان أخرى أوروبية. في التلفزيون على الأقل لا يظهـر الحـشاشون ولا العاطلون، والعالم كله مزيان إلا المغـرب. كيفـاش؟ لقـد درسنا في التاريخ أننا كنا في الأندلس وبعنا واشترينا في الذهب والملـح في إفريقيـا. وكـان الرخـاء والحيـاة جميلـة، والعلـماء موجودون في كـل عـصر. فكيـف أصـبح الجـامعيون عنـدنا يتـسكعون في الـشوارع، يـشربون الكحـول الخـالص ويتحـشون؟ هذه أشياء لا أفهم فيهـا. ولكـن اللهـم الطـف

واستر. وأنا لا أريد حتى الحصول على الباكالوريا فأنا أعرف مصير الحاصلات عليها من صديقاتي، كلهن يقحبن مع عجائز صلع الرؤوس منتفخي الأوداج لكي يدفع عنهن هؤلاء تكاليف الدراسة في الكليات. ياه! صديقة أختي حصل لها ذلك، كانت في السنة الثانية طب، طردوها فأصبحت لا تعرف ما تفعل بنفسها وقيل إنها التحقت بأحد مراكز تكوين الأساتذة في مكناس أو فاس لا أدري. وربما ذهبت مع سعودي لجلب المال من هناك. وماذا يهمني أنا من كل ذلك. لو عثرت على عمر فقط، لسار كل شيء على ما يرام. ولا شك أنه يشتغل في الدار البيضاء وله وضعية مالية جيدة لأنه يعرف ما يفعل، ويستطيع أن يضمن عيشه بأية طريقة:

- هل كنت حقًا تحبين ذلك الشاب عمر؟

- نعم. وكان يحبني أيضًا.

- أنت متأكدة من ذلك؟

- متأكدة.

- ولماذا فعلتماها؟

سكتُّ وخجلت أن أرد، كررت والدتي السؤال. قلت:

- لم نفعل أي شيء يا أمي. لو كانت عندي دراجة جيدة لما وقع ما وقع.

- وما علاقة الدراجة بذلك؟

- هي سبب هذه الطلية.

ولم تكن الوالـدة تعـرف شـيئًا عـن ذلـك اللقـاء الأول، ولكن، هل كان الأمر يعنيها إلى هـذا الحـد؟ فـوق ذلـك هـي أمي. ولا شك أن أي والدة تهتم بما يحصل لابنتها كـما أن كـل زوج يهتم بما يحوم حول زوجته.

كم كان عمر خوافًا! لو أنه بقي هنا فقط، وتحمل المكوث بضعة أيام في قبو مركز الـشرطة؛ لكنـا قـد تزوجنـا، لكانـت عائلته دفعت قليلًا من الرشوة إلى أحد الضباط الكبـار إذ ذاك يـسقط في يد عائلتي، ونعيش أحسن قصة حب لم يعشها اثنـان أبدًا. ومع ذلك، لا بدّ أن أزور الدار البيضاء، ولا بـد أن أرى عمر. وأنا متأكدة من أن عمر هو أيضًا يرغب في أن يراني...

م. ز: احلمي طول عمـرك. والله لـن تـشوفي عمـر في حياتـك يـا خونيزة. ما أنت بالأولى ولا بالأخيرة. ما كل امرأة تتزوج من تحب ومـا كل رجل يتزوج من يحب

6

باب الكيْد

انسحب حسن إلى جحر آخر في الدار البيضاء. صعب أن تجد جحرًا هذه الأيام في المدينة لكي تأوي إليه، ولكن مع ذلك، استطاع حسن أن يحفر في الأرض لكي يعثر عليه (انتهى!) بقي دحو والمختر، وقال دحو:

- يجب أن يطرد المختر لأنه ينظر إلى جيجي نظرة معينة.

وقال المختر:

- لا فائدة في شخص مثل دحو. فجيجي تتضايق منه ولقد لاحظت كيف أنه يضايقها.

وقالت جيجي:

- إن دحو والمختر شابان طيبان. أتمنى أن يفتح الله عليهما فيجدا لهما سكنى خاصة.

ما كنت أعرف ما يقع، ولم يكن في إمكاني أن أعرف. غير أني كنت متأكدًا من أن جيجي تحبني وأن شعوري تجاهها ربما كان حبًا أيضًا. ولم أدر كيف أن الناس يستطيعون بذلك المكر البشري الكيد لبعضهم. في الظاهر، لم تكن تبدو على أي واحد من دحو والمختر علامة استياء عندما يلتقيان. غير أنهما قلما كانا يلتقيان. فأحدهما يتغيب عن سطح العمارة أحيانًا ثلاثة إلى سبعة أيام. ليعود بقليل من الدراهم يدفعها لجيجي التي ليست في حاجة إليها طبعًا في هذه الظروف. وحاولت أن أجد لأحدهما عملًا في الملهى الليلي. قلت ذلك لجيجي. وافقت. الفكرة جيدة. لكنهم لم يكونوا في حاجة إلى نادل، بل في حاجة إلى قوادين ممكن...! المختر رفض أن يصبح قوادًا. ودحو رفض أيضًا لأنه قبل أيام التقى بأوروبى، يدير إحدى الشركات في الدار البيضاء. ووعده بأن يجد له عملًا في الشركة نفسها، بل إنه اقترح عليه ثروته، يفعل بها ما يشاء.

قالت جيجي:

- لا شك أن لدحو.. (وقامت بحركة ما).

- احشمي قليلًا.

- ولماذا أحشم؟ كثير من الناس يكسبون حياتهم من فروجهم سواء كانوا قحابين أو شاذين جنسيًا. أعرف الكثير من هؤلاء الذين أدركوا الحياة التي لا تدرك، إلا بطرق مثل تلك.

وبالفعل تغيرت أحوال دحو عندما تعرف على ذلك الأوروبي في حديقة السندباد. كان دحو عادة ما يرتاد الحديقة في أوقات معينة. لم يكن يجد ما يعمل. اقترب منه ذلك الأوروبي وتمدد بالقرب منه على العشب. ناوله سيجارة، تحدثا، ثم اختفيا في الدغل. ووجده رجال القوات المساعدة فوقه. دفع ذلك الأوروبي رشوة وأخذه معه بالسيارة الفولفو إلى البيت، شرب دحو كثيرًا، وعاد إلينا في نهاية الليل سكران وفي يده حزمة من الأوراق النقدية.

- من أين لك هذا يا دحو؟

- سأقول لك غدًا.

سحبته إلى السطحية. قال:

- لقد كنت مع أوروبي. عندما سكر سرقت منه هذه النقود، خذها يا رحّال احتفظ لي بها. من الآن فصاعدًا لن أعيش إلا معهم ما دامت ليست لنا قدرة على النساء، الرجال يدفعون أما النساء فيأخذون.

قلت له:

– إذا أدمنت على هذه العادة فسوف تصبح في آخر أيامك مثلهم.

– إني أريد أن أعيش. لا يهمني أن أصبح مثلهم. إني أكبر فاشل الآن لأني لا أستطيع أن أجد حتى ثمن علبة سجائر، الفلوس وحدها تصنع منك رجلًا.

قلت لدحو:

– لا شك أنك سكران الآن. عليك أن تنام وربما تحدثنا في الموضوع غدًا.

جررت دحو من ذراعه وهو يتجشأ رائحة كريهة. أدخلته وألقيت به في مكان ما. دمدم ببعض الكلمات، ثم سمعناه يشخر.

قالت جيجي:

– سوف يصاب بزكام هذه الليلة.

قلت لها:

– نامي. لا يهمك أنت من هذا شيء. هناك الصيدلية التي تستطيع أن تحل مشكلته.

ومرة أخرى، لا أدري كيف يستطيع البشر أن يكيدوا

لبعضهم بتلك السهولة، ودون أدنى شعور بتأنيب الضمير. ما هو الضمير؟ لا أدري. غير أني أعتقد أنه شيء ما، بعيد عن إدراكنا، يقول لنا هذا قبيح وذاك مقبول. لكن ذلك الشيء مع الأسف يكون في أغلب الأوقات غائبًا عند الناس. هل هو الذي يحضر من تلقاء نفسه في الأوقات المناسبة، أم نحن الذين نستحضره. في الحقيقة هناك أشياء كثيرة تحيرني، مثل الضمير، العقل، الروح. أين هي هذه الأشياء؟ وفي أي مكان من أجسادنا توجد؟ وأتصور أحيانًا، أن الإنسان لو استطاع العثور على مكامنها في الجسد لحلت الكثير من المشاكل اليومية، لكف الناس عن الاقتتال فوق السطوح، ولأغلقت النساء أفواههن التي تشبه المزابل في حالات الغضب، ولعاد كل قائد مقاطعة إلى زوجته وكف عن خيانتها، ولما اعتدى وكيل نيابة أو كوميسير على امرأة مسكينة بئيسة تدير بارًا عاديًا، ولكفّ مفتش الضريبة عن طلب الرشوة، ولأصبح الحكام ملائكة منزهين يحبون الخير لكل الناس ويعطونهم المثال في المحبة والإخاء والعدالة. لكن مرة أخرى كيف يستطيع الناس أن يكيدوا لبعضهم، كيف يكيد دحو لحسن؟ وكيف يكيد حسن لدحو؟ وكيف حاولت الحاجّة أن تكيد لي؟

في تلك الليلة، استيقظ دحو مرتين، وسمعناه يقيء

ويتألم. تقيأ حتى لم يبق في جوفه شيء، كان ذلـك واضـحًا أنـه كان يتألم، واعتقدنا أنه سوف يمـوت في تلـك الليلـة، لكنهـا حالات كانت تمـر بـسرعة وتتكـرر باسـتمرار، وفي الـصباح ستيقظ شاحب الوجه لأنه لم ينم بما فيـه الكفايـة ولم يـنم كـما اعتاد أن ينام، خرج، نعم خرج. ربما ذهب إلى ذلـك الأوروبي في عين السبع. لم يقل لنا شيئًا، وكان ذلك أفضل. أحيانًا، على الإنسان أن يقفل فمه، وأن يقول ما يريد قولـه لنفـسه، تلافيًـا لكي لا يفهمك أحد. لأنه ربما أوّل الشخص الـذي تتحـدث إليه كلامك، وجعل من البقرة حمارًا ومن الحـمار ثـورًا، ومـن الثور دجاجة، وتلك هي المشكلة الحقـة في كـلام النـاس، إذن خرج. نعم خرج ولم يقل لنا شيئًا.

وقالت جيجي:

- لا بد أنه خجل من ليلة أمس، لذلك لم يستطع المكوث في البيت.

- قد يكون على حق. شيء رائع أن يشعر الإنسان بخجل من تصرفه حتى ولو كان لا إراديا. ذلك ما يعوزنا جميعًا.

- على كل حال، لقد كان عاديًا، وتصرف بتلقائية.

- بعض الناس لا يفهمون ذلك.

- تمامًا.

- ويعتبرون ذلك ضعفًا فيك. الإنسان لا يكون قويًا إلا بضعفه. خصوصًا إذا اعترف به. الضعف البشري أحيانًا يكون هو القوة الفعلية، عندما يدركه الإنسان في نفسه قبل أن يدركه في غيره.

قالت جيجي:

- إنك تتحدث في أشياء صعبة، لكنك قوي في فهم تلك الأشياء التي تغيب عني، هذا ما يجعلني أزداد حبًا وتعلقًا بك.

قلت:

- تلك أشياء في متناول الجميع، يكفي فقط أن نُعمل العقل وأن نحرك أدمغتنا. لا بد أن نحركها أحيانًا حتى لا تصبح جامدة مثل كتلة صقيع. إذا جمد الدماغ جمد الجسد وجمد كل شيء: الحياة مثلًا. نصبح مثل الحمير.

قالت جيجي:

- كثير من الناس يشبهون الحمير، لا شك أن أدمغتهم جامدة.

- ها.. تمامًا. لقد أصبحت تفهمينني جيدًا.

- ومتى لم أكن أفهمك؟ لا تستهن بي، لو لم أكن أفهمك لما كنت قد أحببتك. لا تستطيع أن تتصور أنني أفهم بعض

الأشياء التي ليس في مقدور أية امرأة فهمها حتى ولو تعلمت في أوروبا.

- لا تتحدثي عن أوروبا. إن الأوروبيين مجرد شاذين جنسيًا، والأوروبيات مجرد سحاقيات، وهذا لا يمنع من كونهم..

- من كونهم ماذا؟ قل، تحدث، إني أريد أن أستفيد منك.

- لا داعي لأن أتحدث كثيرًا. ثم إن خيط الحديث يطول دائمًا، ويجب ألا يقطعه المرء في لحظة واحدة..

- كل ما تقوله صحيح.

ثم مرة ومرة أخرى.. ماذا يمكن للإنسان أن يقول. فالحياة عامرة بالغرائب والعجائب التي لا يمكن للإنسان أن يكف عن القول فيها أو عنها. قال لنا مدرس العربية ذات يوم:

«اعمل لرزقك كل آلة لا تقعدَنَّ بكل حالة..»

وقد عمل مدرس العربية كل آلة حتى أصبح مدرسًا في إحدى الإعداديات، لأنه كما روى لنا بنفسه كان يبيع الجوارب في البحيرة، وذات يوم تولى الوزارة رجل اسمه محمد الطاسي أو محمد الساسي لا أذكر، أراد أن يعرِّب التعليم

فاستدعى كل من هبّ ودب. أجروا لهم امتحانًا في التلاوة ودفع بعضهم شيئًا من الرشوة، وصاروا – تبارك الله – معلمين في الابتدائي.. ثم انتقلوا كأساتذة إلى الثانوي، ومنذ أيام فقط شاهدت حفلة لمدير ثانوية، كانت الخراف المشوية وزجاجات الويسكي تتقاطر على بيته احتفالًا بترقيته، ولما سألت عنه قيل لي إنه كان مجرد متعلم خياط. وهو مثل مدرّسي الذي عمل لرزقه كل آلة. أعود فأقول، إن على الإنسان أن يعمل أي شيء لكي يكسب حياته ما دام لا أحد يستطيع أن يعولك، أو أن يطببك، أو أن يدفع ثمن كراء بيتك، والله وحده يعلم أني لا ألوم في أعماق نفسي ما يقدم عليه دحو. وإن كنت لا أرضاه لنفسي ولا أبغيه لمسلم. وما أقبح أن يعيش الإنسان من ذلك الشيء سواء كان امرأة أو رجلًا. وجيجي طبعًا تعرف أن كثيرًا من الناس يعيشون من ذلك، وأنا أيضًا أعرف. ولكنه شيء خايب وحشومة وحرام.. ولكنها الحياة التي لا ترحم، والإنسان ذئب لأخيه الإنسان، وكل واحد منهم يكيد لأخيه، وإذا تحدثت عن مدرّسي فإنما أتحدث فقط، وليس بغرض أن أكيد له. ومع ذلك فالناس طيبون، وبقدر ما يكيدون لبعضهم فهم يريدون الخير لأنفسهم وللناس. المهم أن هناك شيئًا ما ينقصهم لكي يصبحوا أخيارًا. غير أنه يبدو لي أحيانًا أن قليلًا من الشر هو

ملح الحياة، ولا أستطيع أن أتصور تلك الجنة التي وعدنا بها الله سبحانه، حيث كل حياتنا اليومية سوف تكون خيرًا في خير. يا رب سامحني، فأنا لا أجدف بنعمتك ولا بقوتك. أنا لا أتصور عالـمًا سوف يكون فيه الناس متساوين في الجمال والثروة والعاطفة والشباب والخلود.. ولا أتصور عالـمًا مثاليًا مثل ذلك إلا بقليل من الكيد والشر، لا بكثيره.. يا ربي سامحني مرة أخرى؛ لأنني لا أريد أن أكيد لأحد، ولا بأس في قليل من الكيد، لأن الكيد درع للنفس. درع واقية والله أعلم، لقد كدتُ لبعض الزبائن عندما سكروا مرارًا. وقد أقنعتني نفسي بأن ليس في ذلك غضاضة، فواحد يسكر ويبذر المال يمينًا وشمالًا. وهناك آلاف العائلات تبحث في قمامات الشوارع لتعثر على قطعة خبز أو فضلات طعام. وإذا كان أحد زبائني من أولئك الذين يملكون الفيلات الكبيرة، وفيها المسابح الباردة والدافئة والحدائق الغنّاء، فإني لا بد كائدٌ لهُ. غير أن هؤلاء لا يرتادون مثل تلك الأماكن، لأنهم يخافون على أنفسهم وسمعتهم. ولا يزورنا منهم إلا من كانت لديه مشاكل جنسية في بيته. وهكذا فالكيد بين هؤلاء واجب، غير أني لا أحب كيدًا في السطوح وفي الأزقة، وكيد ربة عمارة لمستأجريها وكوميير أو وكيل نيابة لمواطن مسكين مثل هذا وذاك.. وعليه، فدحو شاب طيب، والمختر كذلك، والحاجة

أصبحت طيبة، وكلنا طيبون. وهـذا شيء جميـل رائـع، وعـلى الإنسان أن يكف عن الكيد لأخيه الإنسان، حتى لا يُكاد له بما هو أفظع، لأن من كاد يُكاد لـه. وحتـى إذا لم يـستطع بـشر أن يكيد له فالله خير الكائدين وأيضًا، الله سبحانه، خير المـاكرين في الكيد. وقالت جيجي:

- إن الضرايبي، صاحب الملهى الليلي، يحبك كثيرًا، لأنك رجل جاد في عملك، وغير غشاش.

وعندما نطقت كلمة غـشاش، ضـحكت، وحاولـت أن تخفي ضحكتها، ضحكت أنا بدوري وقلت لها:

- ما يهمك في الأمر كله؟ أخشى أن يكيد لنا ذات يوم.

- لهذا يجب اتخاذ الاحتياطات اللازمة، لقد كادوا لك مـا شاؤوا أن يكيدوا في السابق، وقد آن الأوان لكي تعرف كيـف تكيد لهم.

لا أدري، كل شيء تغير، البيت في الـسطح تغير، جيجـي امرأة حاذقة. الورق الملون والثلاجة والـسلسلة ستيريو. كيـف حصل ذلك؟ لا أدري دائمًا. ورغم أني أعرف فـإني لا أحـاول أن أعرف، لم أكن أجد ما أشتري به علبة سـجائر، أمـا اليـوم فالأحوال تغيرت، وشيء رائع أن ينطلق الإنسان من الـصفر، أقصد من صفر روماني، إلى أرقام معينة مـن الفلـوس. وعـلى

كل حال، فالدار البيضاء مدينة يمكنها أن تعطيك الفرصة لكي تعيش. عليك فقط أن تتنازل عن بعض الأشياء، لا داعي لشرحها، ولماذا لا نقولها؟ يمكن للمرأة أن تقحب قليلًا، أقصد حتى زوجتك أو أختك أو ابنتك، ويمكنك أنت أيضًا أن تكشف عن أعضائك، فهناك الشواذ الذين يرغبون في فعل ذلك، وعليك أيضًا أن تكذب قليلًا أو كثيرًا وأن تنافق قليلًا أو كثيرًا. وأن تفعل هذا أو ذاك. باختصار، أن تكيد إما لنفسك أو للآخرين، وهذه هي الدار البيضاء. وبدون ذلك لا تستطيع أن تعيش. وأحيانًا أتصور ما الذي سوف يمكن أن يقوله أولئك الذين سوف يولدون، وسوف يتجولون في نفس الأزقة والشوارع التي نتجول فيها الآن... أتصور ذلك بعد عشرين وثلاثين سنة قادمة. إني لا أفهم في تلك الأشياء، غير أني أجد متعة قوية في الاستماع إلى صديق كاتب، لم أقرأ له شيئًا، كاتب مثل تولستوي. رأيت صوره في بعض المجلات والجرائد، هذا شخص يحدثني عن المغرب الذي لا أعرف. وأنا أيضًا أحكي له عن الأشياء التي لا يعرف ولا يمكنه أن يعرفها، لأنه كاتب، والناس لا يثقون بالكتاب. يخافون منهم. ربما فضحوهم. ورأيت كثيرًا من ذوي كروش الحرام يدفعون ثمن ما يشرب ذلك الكاتب، لكنهم يغتابونه ويحاولون أن

يبتعدوا عنه ما أمكن. مع أنه مسكين وظريف ولا يسكر ولا يؤذي أحدًا، ونحمد الله على أن بلادنا أصبح يوجد فيها مثل تولستوي وماركس وشوقي الذي يكتب عن الربيع وحافظ الذي يكتب عن النيل، وذلك الكاتب الذي يكتب عن السيارة الملعونة، وإن كان لم يعجبني قط. أنا لا أقرأ ولكني أحب ماركس، وأحب سوناتا تولستوي، وأحب هذا الكاتب الذي قرأت له بعض الاستجوابات، يسب فيها الوضع ويتحدث عن الفقراء، وإن كنت لا أفهم أحيانًا ما يقول في استجواباته. استدعيته مرة إلى البيت فزارني وشربت معه ولم تشرب جيجي، وظلّت تنْصتُ إليه وأعجبت به، وقالت جيجي:

- يا حليلي! حتى نحن أصبح عندنا مفكرون، وسنصبح مثل الدول الأخرى وسيصبح المغرب معروفًا في العالم كله، هذا شيء رائع. سوف نتحضر نحن كذلك، ولن يقحب نساؤنا من أجل كسرة خبز، ولن يغض بعض رجالنا الطرف منذ الآن عن بناتهم اللواتي يفتحن أفخاذهن للسعوديين وللبحارة الأوروبيين.

قلت لجيجي:

- ما علاقة هذا بذاك؟ أنت تخلطين شعبان برمضان.

قالت جيجي:

- وما لي؟ ألا أقول سوى الحق؟ إن البلدان التي يكثر فيها الكتّاب والمفكرون لا يعاني سكانها من الجوع والفقر مثل بلادنا.

قلت لجيجي:

- أنا لا أفهم في هذه الأمور. وخير للإنسان ألا يدلي بدلوه في بئر جافة. قال لي ذلك الكاتب، إنهم كادوا له وتحدثوا عنه في مدينة فاس، وقالوا عنه إنه ولد الحرام ويريد أن يزرع الفتنة والعنصرية في البلاد، مسكين! فهو ما يظهر عليه ذلك. ولكنه لا يقول إلا الحق، وهو الذي عندما رأى بعض المجلات وبعض الكتب في بيتنا قال إنه ما رأى كتابًا واحدًا في بيوت أولئك الذين يشتمهم في كتبه، بل رأى أشرطة الفيديو الخليعة والأسطوانات. وقال لي أيضًا، إنهم ينكحون أخواتهم وبناتهم والمحرمات عليهم، تفو... يا العياذ بالله. وكان هذا في عهد الفراعنة إنه المسخ! ولهذا فهم يكيدون له ويكتبون عنه في جرائدهم كلامًا سافلًا ومنحطًا وقذرًا. ولا شك أن الله سبحانه سوف يبعث ويسلط عليهم من يكيدون لهم، إنه خير الماكرين.. آمين. في هذا البلد عندما يوجد إنسان يريد أن يقول الحق يتهمونه بالحمق، وهذا كاتب مسكين يحبنا ويحب الخير

لبلاده، وفيه شيء واحد قبيح هو أنه يكره النساء ولا أدري لماذا؟ ربما كان على صواب، وهو أعرف مني في هذه الأمور. الحقيقة أنه لا يكره النساء ولكنه يكره الرجال الذين جعلوا من النساء دُمي، ووضعوا على قريباتهم القيود في حين استباحوا لأنفسهم نساء الآخرين. هذا عيب. ومعه حق. إما أن تنكح أختي وأنكح أختك أوْ بلاش. والنساء أيضًا يهديهن يفتحن أفخاذهن لأول رجل يكذب عليهن.

وقالت جيجي:

- من حقه أن يتحدث عن النساء بذلك الشكل لأنهن حراميات وخلاطات. وليحمد الله لأنه ليس شاذًا ولا أي شيء. ومظاهر الفتوة والرزانة بادية عليه. هكذا يكون الكتّاب وإلا فلا، ولو لم أكن أحبك لعميت من أجله وأحببته، ودفعت كل ما أملك من أجله، يا حليلي! بلادنا فيها الرجال وما كنا نعرف ذلك.

وعندما استقللنا وحدنا، أنا وجيجي، فوق السطح، أصبح يزورنا ذلك الكاتب باستمرار. أصبح صديقًا لي ولجيجي. والناس يقولون: «يجب معاشرة من هو أحسن منك». رجل كتوم ولا يبوح بالسر مهما كان، وهو يعرف جيدًا أني قتلت شخصًا بالسكين. اعترض سبيلي أنا وجيجي،

وكـان معـه أشـخاص أرادوا أن يغتـصبونا. عنـدما طعنتـه بالـسكين فرّ الآخـرون. وركلتْ جيجـي واحـدًا مـنهم عنـد الإليتين، لكنه رغم الألم انـسحب يجري ككلـب. ولـو كـان شخص آخر غير هذا الكاتب لبلّغ عنا للبوليس. ولكنه رجل كتوم. واعتبر ذلك مشروعًا ودفاعًا عـن الـنفس. وقـال لي إن البوليس لن يغفر لك ذلك لو ضـبطك. ولقـد أخـذت ثـأرك بنفـسك ولو لم تفعل ذلك لكانوا قد اغتصبوك أنت وجيجـي، ألا تعرف أنهم اعتدوا على امرأة عمرها نصف قرن في سـيدي البرنوصي، إن عـلى الإنـسان أن يحـرص عـلى طيـزه حتـى في الأوتوبيس ولا أدري ما الذي أصاب الناس؟

يأتينا الكاتب أيضًا في المساء، أمرر لـه بـيرات مجانًـا، إنـه يستحق ذلك لأنه صديق وهو أعز عندي من أبي وأمي وبؤبـؤ عيني. إنه يستحق ذلك لأن رأسه عامر بالعجـب. الله الله! مـا أروع أن يكثر في بلادنا أمثاله. وقال لي إن في بلادنا كتابًا كبارًا، وله واحد منهم صديق مشهور في العالم اسمه محمـد شـكري، يعيش في طنجة. أنا أريد أن أراه قبل أن يموت. وسـألته هـل كتب شيئًا مثل سوناتا تولستوي، قال لي نعم. وحياته غريبـة، يبلغ الخمـسين من العمـر ولم يتـزوج، يفطـر بنـصف زجاجـة ويسكي وعندما يـسكر تأتيه رغبة في خنق النساء. قلت لـه مـا لكم وما للنساء.

وعلّقت جيجي:

- معهم الحق. لقد كثرت القحاب. أنا التي أعرفهن لأنني قحبت معهن، ولا يحببن في الرجل شعرة، وليست هناك امرأة تحب رجلًا إلا إذا كان جيبه مليئًا.

ياه ياه! رأسه عامر بحكايات من هذا النوع. لقد حكى لي عن زوجة رئيس حكومة كندا. قال لي إنها فرت، وتركت طفليها (هل لها قلب هذه المرأة؟) وذهبت إلى مراكش، وأخذ الصبيان يحشونها ويتعاقبون عليها، الواحد تلو الآخر. هاك من عند النساء! وقال لي إنها أرادت أن تشوه سمعة المغاربة، فكتبت عن رسام مغربي وقالت إنه يأخذ الأطفال الصغار إلى بيته يحششهم وينكحهم. بنت الحرام! لكن الرسام قيد بها دعوة في المحكمة. برافو عليه، حتى يرفع راية المغرب التي بدأت تنزل في هذه الأيام. محمد شكري! سأقرأ السوناتا التي كتب. ولماذا لا أقرأ لكتّابنا؟ وقال لي إن هناك كتّابًا آخرين كبارًا، إلا أن بعضهم توقفوا عن الكتابة لأنهم تزوجوا، وشغلت زوجاتهم كل أوقاتهم، وزججنهم في الحياة اليومية. البطاطس والآجر والأسمنت والزبدة والسيارة والأولاد. هاك من عند النساء مرة أخرى.

ولو ذهبت إلى طنجة لحملت لمحمد شكري زجاجات ويسكي مهربة، لكنني حتمًا سأمنعه من خنق النساء. لا لشيء

إلا لأني لا أريد للكاتب أن يموت من أجـل قحبـة. ولـو أراد القحاب فليأت إلى الدار البيضاء، وسأرغم اثنتين عـلى النـوم معه كل ليلة، وهـو أولى بـذلك مـن هـؤلاء الكـلاب الـذين يرتادون الملهى.

7

باب طبيعة الكاتب

قالت الحاجّة:

- تخلصت من أولئك وجئت بهذا لا أدري من أين؟ يظل صباح مساء صاعدًا نازلًا درجات العمارة.

قلت للحاجة:

- إنه رجل محترم. كاتب كبير، وأحسن بكثير من الـذين يرتادون بيتك. أنت لا تعرفين معنى أن يكون الإنسان كاتبًا؟

- ومن يكون في ملك الله؟ لقد حدثني عنه المقـدم. فهـو يعرفه جيدًا.. إنه مجرد سكير وكافر وملحد.

- إن المقدم لا يفهم في هذه الأشياء.

انتفضت الحاجة وقالت كيف لا يفهم في هـذه الأشـياء؟ ولو لم يكن يفهم لما أصبح مقدمًا عليك وعـليّ. قلـت لهـا إنـه مقدم عليك لا عليّ، وقالت إنها ستبلغ عنـي، وسـيأخذني إلى المقاطعة، إذ ذاك سوف يشبعني أعضاء القوات المساعدة ركلًا وضربًا حتى أزن كلامي هذه المرة بميزان الحكمة، واه واه! لـو كنا نخاف من الدجاج لما نتفنا ريشه وأكلناه. سيضربونني، ثم ماذا بعد؟ يدخلونني إلى السجن، ثم ماذا بعد؟ ليس لي وظيف رسمي مع الحكومة حتى أتوقف عن العمل. ما أنا إلا قواد في ملهى. وقال عمر:

- تهددني بالمقدم.

- إذا أردت أن تنصب له شركًا فما عليـك، زجاجـة خمـر وفتاة، وبعد ذلك نستطيع أن ننزع له سرواله، لن يرفع عينيه في وجهك حتى القبر.

- هو لم يفعل شيئًا لحد الآن. الحاجة هي التي تتـدخل في أمور لا تعنيها.

- تلك امرأة خير من ألا يتحدث عنها الإنسان.

- وهي ماذا تفعل في بيته؟ تـتهم ذلـك الكاتـب بالفـسق وأشياء أخرى.

– إنه رجل طيب، ويتحدث في أشياء كثيرة لا أفهم فيها. ليتني كنت أمتلك ثقافته، لأصبحت كوميسيرًا.

– إنه فوق كوميسير.

– إلى هذا الحد؟

– وفوق وزير.

– إلى هذا الحد أيضًا؟

– أنت لا تعرف من هم الكتّاب؟

– لا أعرف شيئًا في هذا الأمر، ثم إني لا أقرأ إلا الصفحة الرياضية في بعض الصحف أحيانًا، والأشياء الأخرى لا تهمني. يبقى ذلك شغلهم وحدهم، قالوا لي مرة تعال تدخل إلى النقابة فهربت منهم. ماذا سوف تعطيك النقابة لو لم يعطك ذراعك؟ أليس كذلك؟

– يجب أن تتناقش مع الكاتب في هذه الأمور. أنا لا أعرف إلا تولستوي وماركس. هل تعرف ماركس؟ هذا أيضًا يكتب عن مثلي ومثلك ويدافع عنا.

– أسمع بماركس، إنه شيوعي. أنا مسلم ولست شيوعيًا، ثم إني في الحقيقة لم أقرأ له شيئًا، عليّ ألا أتحدث في الأمور التي

لا أفهم فيها شيئًا. اسمع يا رحّال، أعتقد أننا في بعض الأحيان في حاجة إلى أناس يُفَقِّهوننا في مثل هذه الأمور مثل ذلك الكاتب.

- هؤلاء الناس يجب أن تبحث عنهم، لا أن يبحثوا عنك. أنت تظل تسكر وتتشاجر من أجل...

سكتُّ لأني كنت أريد أن أقول من أجل تلك العجوز لكني خفت أن يغضب.. ولكن الأكيد أنه لم يكن ليغضب، لأنه هو نفسه يشتمها. ولكن من يدري؟ ربما غضب. كل شيء محتمل في الحياة، حتى العصا التي يمكنها أن تصبح حية والحية التي تتحول إلى امرأة، لا يهم، كل شيء ممكن وكل شيء غير ممكن. والحاجة تفتح فمها دائمًا، خصوصًا إذا ما شربت جرعة أو جرعتين من الخمر. وقال لي صديقي الكاتب:

- لا تهتم بها. أنا أستطيع أن أغلق فمها. مثيلاتها كثيرات، والمرأة لا يمكنها أن تغلق فمها إذا لم تغلقها من تحت.

قلت:

- هي لا تهمني، بقدر ما يهمني ما يمكن أن يحكيه المقدم.

- ذلك شأني، تعودنا على خياطة وحياكة من نوع معين، وكل ما يمكنه أن يخاط يمكنه أن يلبس حتى ولو كان ثوبًا من شوك.

وقالت جيجي:

- يدخل ويخرج كيفما يشاء، ونحن ما وجدنا صديقًا ورجلًا مثله. ولتخرج الحاجة والمقدم من ثقب إبرة. ما أنا إلا قحبة، ومستعدة أن أدخل السجن من أجل رجل يحمل أفكارًا مثل أفكاره.

كانت جيجي تقترب دائمًا من أفكاري. إنها امرأة ليست كالنساء اللواتي عرفتهن. فكل النساء اللواتي عرفتُ لا يحترمن أزواجهن أو أصدقاءهن إلا لكونهم ذوي علاقات أو شهرة أو سلطة. وما الذي تحبه جيجي في قواد مثلي؟! إنها امرأة تستحق كل حب. وحتى الإنسان الذي يمكنه أن يفكر في الحب، يستطيع أن يقع فيه مع جيجي.

نبحت الحاجّة وعوت ومأمأت وأمأمت ونقنقت وزأرت وطنت وسكتت في الأخير. وخرج المقدم من ثقب الإبرة، وصديقنا ظلّ صديقنا. وماذا يمكن لأي كان أن يقول في ذلك. هذا رجل خير من مئات الرجال. وقال لي إنه ينوي أن

يغير عقليات الناس وأن يقلب مفاهيمهم العوجاء لأنهم يكذبون كثيرًا، وينافقون بعضهم من أجل الوصول إلى شيء ليس أبعد من فروجهم لا من أنوفهم. معه حق، لذلك فهو قوي بذاته. وطز على امرأة خانزة مثل الحاجة. امرأة مارجة وهجالة ومعفونة وكل شيء. رجل ما رأيت مثله. إنه يشتم حتى اللغة العربية، وأنا لا أفهم فيها شيئًا. ومن حقه أن يشتمها، فالقصائد التي قرأت في الثانوية كلها في المدح الذليل وواحدة منهن فقط تصف بركة نتنة وقذرة اسمها بركة المتوكل، هو الذي قال لي هذا الكلام، ولم أنتبه قط إلى أن تلك البركة نتنة وقذرة حتى قال لي ذلك، يفهم في كل شيء، وقال لي لا تهتم بالحاجة، دعها تقل ما تشاء، فالنساء يتشابهن، وإذا أردت أن تعرفهن فاقرأ كتابًا لجيوفاني بوكاتشيو، أي أي! كم يقرأ الكتب ويتحدث في كل شيء. ألا يستحق الإنسان أن يموت من أجل أشخاص كهؤلاء؟

زارنا مرة في النادي الليلي، كان سكران ولكنه كان عاقلًا مع ذلك، اقترب منه شخصان اثنان، وخشيت أن يعتديا عليه، فكثيرًا ما تقع هذه الأشياء بين هؤلاء الأشخاص متوسطي الدخل، يتقاطرون علينا من درب السلطان ومن سيدي معروف، ومن سيدي البرنوصي، وعندما يسكرون يغرزون في

بعضهم السكاكين أو زجاجات البيرة. اقتربت منه، سمعته يتحدث معهما في شؤون نقابية. كان الرجلان معجبين بنفسيهما، بادئ الأمر، لكن في النهاية رأيتهما يقبلانه ويناديان له على بيرات أخرى، لقد اكتشفا عقله وثقافته. عجيب وعفريت، غير أنه يسكت كثيرًا، ولا يتحدث إلا في الوقت المناسب، ذلك أحسن. وخير للإنسان أن يسكت حتى يعرف ما الذي يريد أن يقوله عدوه، لأن الحياة مليئة بالأعداء. وأعتقد أنه على الإنسان أن يفترض في إنسان آخر العداوة حتى يتأكد من صدق صداقته. ذهب أحد الرجلين إلى المرحاض، والتحق الثاني بساحة الرقص مع فتاة، ذهبت إليه:

- هل ضايقاك؟

- لا.

- إذا فعلا، قل لي ذلك، هناك من بمقدوره أن يشبعهما رفسًا ويخرجهما.

- لا، لا.

- أنت لا تعرف هؤلاء الأوباش، ما إن يشربوا بيرة واحدة حتى يريدوا أن يحولوا الدنيا إلى آخرة.

- لا يهمك، أنا متعود على أمثالهما.

- تريد أن تشرب بيرة أخرى؟

- هات.

فتحت البيرة ودفعتها له، شرب أخرى وأخرى، حتى شعر باسترخاء في مفاصله وأعضاء جسمه وثقل في لسانه. كان يعرف ما يفعل. ثم غادر الملهى لأراه فيها بعد.

غادر الرجل الراقص، وتأخر الذي ذهب إلى المرحاض، لا شك أنه كان يتقيّا، أو أصيب بإسهال. طلب الذي كان في ساحة الرقص بيرة «التاج» للفتاة التي كانت تراقصه، كان يتلعثم ويترنح، قال الرجل:

- إن هذا الرجل الذي كان معنا قبل لحظة مهم جدًا.

قالت القحبة:

- هل هو كوميير؟

أجاب الرجل:

- نعم كوميير في المقاطعة الأولى، إنه صديقي، درسنا معًا منذ الطفولة.

- عظيم.

أخـذت ترتجـف، ولم تعـد تعـرف مـا تفعـل بـالبيرة ولا بالكأس. لم ينتبه الرجل السكران لذلك. التحق به زميله:

- أين ذهب؟

- لقـد ذهـب. لا أدري، ربـما انتقـل إلى الجنـاح الآخـر ليتفرج على الجوق.

- كان عليك أن تمنعه من ذلك. نحـن نريـد أن نتنـاقش معه.

- تناقش مع هذه. ألم تعجبك؟

- هذه لك. أريد واحدة لي.

نادى عليّ أحد الزبائن، فتحت له بيرة، وعـدت بـالقرب منها. أخذ الذي كان يـرقص يقـرّب الفتـاة منـه، ويحتـضنها بعنف حتى كادا يسقطان أرضًا. لكنها بقدر ما كانـت خائفـة من الكوميسير، كانت تحاول أن تتخلص مـنهما بطريقـة غـير مزعجة. قالـت الفتـاة بعـد أن رشـفت نـصف كأسـها دفعـة واحدة:

- هل تريدان فتاة أخرى؟

قال أحدهما:

- نعم. لتكن لطيفة مثلك.

ذهبت وأحضرت فتاة. أخذوا يشربون، نسيا كل شيء، النقابة وكل شيء وعندما ينسى المرء بعض الأشياء، فإنما ينساها ليعيش أشياء أخرى بانتظار أن ينساها في وقت لاحق آخر.

8

باب الخيانة

كانت خطواته مثقلة. يجر قدميه بتعب وتلكؤ. وقف معطيًا ظهره لواجهة متجر هندي للملابس، خرج أحد الهنود مهرولًا:

– تفضلا، ثياب آخر طراز، أثمان مناسبة أيضًا. إذا لم ترقكما الملابس فيمكنكما أن تستبدلاها حتى بعد أسبوع. أثمان مناسبة، صناعة متقنة، آخر موضة، صناعة.. آخر.. متقنة.. مناسبة.. أسبوع.. جيدة.. تفضلا.

لم يهتما به. اجتاز الطريق وتبعته جيجي. عاد سيل السيارات إلى الهدير بعد أن سمح له الضوء الأخضر بذلك. دخل قبلها إلى المنتغمري. جلسا قبالة الكونتوار. أشعل لجيجي ولنفسه، قالت:

- يبدو أنك لست على ما يرام.

- لقد قلت لك لماذا قبل لحظة.

- لا تعقد نفسك. يبدو أنكم أنتم الكتّاب تجعلون من الحبة قبة.

- الأمر ليس كذلك. ولكني لم أتعود على أمر مثل هذا.

- لا تهتم كثيرًا. لأن رحّال سوف يضحك منك وأنا ماذا أفعل في ذلك الملهى؟ إننا لسنا متزوجين. إني أحبه وهو يحبني، ولكننا من غير شك سوف نفترق ذات يوم من يدري؟

- إنكما تأخذان الحياة ببساطة إذن. أنا لم أتعود على هذا.

رفع رأسه إلى الجرسون:

- قهوتين باللبن.

قالت:

- لا. واحدة إكسبريس من فضلك.

وأضافت:

- لا بد أن أشرب أكبر كمية ممكنة من القهوة لكي أسهر الليل.

- تحطمين أعصابك فقط. إنها تجلب الانهيار.

في الخلف كـان رجـل كهـل في حـوالي الأربعـين يلعـب بسلـسلة في عنـق فتـاة في حـوالي الخامـسة عـشرة. محفظتهـا المدرسية موضوعة على الكرسي عن يمينهـا. كانـت تـضحك وهي تلتهم برتقالة مجمدة. أتت عليها كلها ثم استرخت عـلى الكرسي إلى الوراء. قال الكهل:

- Une autre orange givrée?

- D'acc.

- Garçon!

ينظر إليهما وكأنه لا يراهما. تظهر أسـنان الـصبية بيـضاء الآن وهي تضحك. تتلمظ بين الفينة والأخرى. جيجي تنظـر إليه بتركيز، ثم تتحرك نظراتها إلى الكونتـوار، تـرى الـدجاج المشوي والـملطة وشرائح اللحم وآنية الخردل، شـمت رائحـة الخـردل عنـدما تـذكرت تلـك السندويتـشات المحـشوة بالبطاطس والخردل. قالت:

- هل بك جوع؟

- لقد أكلنا قبل لحظة.

- آه صحيح تذكرت. لكـن مـا لـك تبـدو واجمًـا؟ هـل أعجبك منظرهما؟ ذلك شيء عادي في الدار البيـضاء، كأنـك نزلت من كوكب آخر. أنتم الكتّاب..

- الأمر لا يتعلق بالكتّاب ولكنه يتعلق بي.

- وما الأمر الذي يتعلق بك؟ هل قتلت الجيلالي بوحمارة؟

- لا. قتلت الجيلالي المعگاز.

- هل تمزح؟ من الجيلالي المعگاز؟

نظر إلى الشارع من خلال الزجاج وهو شارد دائمًا. التفت إليها. كانت نظراتها تنتظر جوابًا.

- آه! الجيلالي المعگاز مثل الجيلالي بوحمارة، ثارا على الدولة.

- يا إلهي! لا أعرف شيئًا عن هذا ولا ذاك، أسمع الناس يتحدثون عن بوحمارة فقط، ولكني لا أعرف عنه شيئًا.

- خير لك ألا تعرفي. لقد جررتُ إلى ما لم أكن أرغب في فعله.

- تعود أيضًا إلى ذلك الحديث، طيب، سوف أقول ذلك لرحّال، أنا الذي داهمتك وأنت عارٍ تمامًا تغير ثيابك. التصقتُ بك مثل علقة، ثم وقع ما وقع. هل يرضيك هذا؟

رشف جرعة من فنجانه. الواقع أن الأمر لا يتعلق بي، ولا بك. لكنه يتعلق به هو. إنه أكثر من صديق. لو لم يكن

كذلك لهان الأمر بالنسبة إليّ. أشياء طبيعية تقع بين امرأة ورجل، لكن عندما لا تتدخل فيها اعتبارات أخرى. هذه الاعتبارات تختلف من إنسان لآخر، من ظرف لآخر، ومن مكان لآخر، قد يحب لورد بيرون أخته ونيتشه وأوديب. وقد يكره شوبنهور أمه. لكن أنا...

قالت وهي تنفث دخان سيجارتها في وجهه:

- إنك تحرك شفتيك. ماذا تقول؟ هل تشتمني؟

- آه! عفوًا. أفكر في شيء ما، شيء يؤرقني كثيرًا، بعيد عن كل ما قد تفكرين فيه.

كانت الفتاة الصغيرة تغرس الملعقة في البرتقالة المجمدة، وتأكل ببطء هذه المرة، والآخر يتأمل يدها النحيلة وهي تنقل الملعقة إلى ما بين شفتيها الملطختين بأحمر خفيف، كأنما تتشبه بأمها إذا كانت لها أم حقًا. انتهت البنت من الأكل، وقفت قبل الرجل الكهل. اقتربت منهما وهي تنتظره وتضحك. كان الرجل يتحدث إلى الجرسون.

صرخت الفتاة فيه:

- بابا، لا تؤخرني. عندي درس الآن في الرابعة.

- انتظري. سوف أوصلك بالسيارة.

- فتيحة تنتظرني في البيت. J'ai laissè mon tablier chez elle...

- Attends une minute

قالت جيجي:

- إنه أبوها.

- همم.

- كنت أعتقد.. لكن كل شيء مختلف في هذه المدينة.

التحق الرجل بالبنت. وضع ذراعه على كتفها:

- يجب أن تنتظريني في السادسة حتى آخذك. في الخامسة والنصف تغرب الشمس، الأوباش كثروا في المدينة. هل تفهمين؟

- نعم يا بابا.

خرجا. ظلّ صامتًا، يدخن، فكر هو الآن أن يغادر المكان ويذهب ليعب زجاجة من النبيذ في أقرب بار. إذا اقترح على جيجي الفكرة فإنها ستلتصق به كعلقة فورًا، وسوف تسكر، ولن تذهب إلى عملها هذا المساء. قرر أن يحتفظ بالسر لنفسه. بعض القرارات الشخصية يجب أن تبقى شخصية، مهما بدت تافهة وغير ذات قيمة. عندما يطلع عليها الآخر، دون حتى أن تكون لديه الرغبة في المشاركة فيها، فإنها تفسد وتبطل فورًا.

الموسيقى تملأ قاعة المونتغمري، الوشوشات. وهناك ضحكات فتيات في مكان منزوٍ، ربما تحولت في البيت، أو في زمان آخر في المستقبل إلى بكاء. ظلّ صامتًا ينظر في كل شيء، لكنه لم يكن يعي في أغلب اللحظات وجود أي شيء يحيط به. شعر أنه من الصعب على إنسان في مثل حالته أن يركز تفكيره على موضوع واحد، ومع ذلك:

- لقد ورطتني فيما لم أكن أريد أن أفعله.

- هل تريد العودة مرة أخرى إلى ذلك الموضوع؟ ما رأيت رجلًا مثلك يبكِّتُه ضميره بهذا الشكل. كل الرجال الذين عرفتهم يشعرون ببطولة خارقة عندما ينامون مع امرأة. لو لم أكن أعرفك لقلت إنك شاذ جنسيًا.

- ما كل الرجال يتشابهون.

- أعرف. لكنك تبالغ في الندم. طبعًا، عليك أن تندم إذا ارتكبت شيئًا عن قصد.

- أنا لم أقصد شيئًا ولكني نادم. عليّ أن أقلب جميع مفاهيمي عن علاقة المرأة بالرجل.

- لا تذهب بعيدًا. سوف أقول ذلك لرحّال، وسوف ترى كيف أنه سيضحك منك. إنه يعرف كل شيء عني. أنا لستُ قديسة، أحب من أحب. وأحيانًا إذا فعلت ذلك الشيء

للضرورة، أبصق ولا أندم. أبصق على ذلك الرجل الذي لم أحبه ولم أبغه.

- لا أدري ما إذا كان ضروريًا إخبار رحّال.

- ما دمت نادمًا بهذا الشكل فلا بد من إخباره.

- معنى ذلك أن امرأة واحدة يمكن أن يكون لها العدد الذي تريده من الرجال.

- لا أقول هذا. ولكني أبغيك وأحب رحّال.

- لا أفهم شيئًا.

- طبعًا، لأن رأسك عامر بأفكار الكتب.

- تريدين أن أحرقها.

- حاشا. كنت أتصور أنها تستطيع أن تبعد عنك الندم. هل تندم عندما تتعرى في الحمام؟ هل تندم عندما تدخن أو تأكل أو تشرب بيرة؟

- ذاك شيء وهذه أشياء.

- لا أدري.

- لو كنت في مكاني لعرفت كل شيء.

- لا أستطيع أن أكون في مكانك، لأنني لم أقرأ الكتب الكثيرة التي قرأت.

وقف وهو يضغط على عقب السيجارة في المنفضة التي امتلأت عن آخرها. لم يعرف لماذا توقف؟ أحس بذلك. ثم انهار على الكرسي مثل بذلة بلا جسد. أخذت جيجي تتأمله في دهشة:

- ما بك هل أثارك شيء؟ هل فكرت في شيء؟

- لا أدري.

- إنك إنسان غير عادي. كنت أعتقد أنكم أقوى من جميع البشر، غير أني تأكدت أن حادثة بسيطة تجعلكم تنهارون. على هذا الأساس فقراءة الكتب خايبة وسيئة إذا كان الكتّاب يشبهونك.

- لا، إنهم لا يشبهونني.

- لن أقرأ كتابًا بعد الآن.

- لو قرأت كثيرًا من الكتب لما فكرت بتلك الطريقة.

- أية طريقة؟ أنا مجرد بارميد. لو قرأت كثيرًا من الكتب لما ندمت مثلما تندم على شيء عادي، يضحك منه رحّال، رحّال الذي لم يقرأ كتبًا كثيرة. ولكن يبدو لي أنه أحسن من الكتّاب رغم أنه يقدرهم، أنت ساكت. لماذا؟ هل تريد أن تغير المكان؟ ما رأيك في بيرة قبل أن يحل المساء؟

- لا، سوف أذهب لأستريح.

- ذاك شأنك. كن متأكدًا أني سوف أخبر رحال. سيضحك منك لا محال. أنت لا تعرفه. إن تفاهات من هذا النوع، تجعله يسخر من العالم حوله.

غادرا المونتغمري، ضجيج السيارات. الازدحام الكبير في الدار البيضاء يكاد يدوخه، قال لها إنه سيدخل إلى البيت. فدخل إلى بار كوميرسي وأخذ يعب في الشراب دون أن تكون لديه رغبة في أكل تلك السردينات البئيسة التي دفعها الجرسون أمامه في صحن صغير من البلاستيك. نظر إلى السردينات وهي مكومة على بعضها في الصحن، تبدو طازجة والزيت يلمع على أجسامها النحيفة. لم تكن للسردينات مناخير. أو هكذا تصور. تخيلها أيضًا تحرك الذنب في الماء وهي تنزلق ملساء عَلِكَة. دفع الصحن بخنصره متأففًا. وقال لنفسه: هذا أوان الشد. ثم حمل الكأس إلى فمه وأعادها على ظهر الطاولة أو على ظهر وضم. ما يهمني إذا اشتدت الزِّيَم؟ غير أن ما يهمني يمكنه أن يهم رحال أيضًا. لكنه على كل حال، لا يهم كل هؤلاء الذين يستمعون أو قد لا يستمعون لأغنية جيمي سميث التي تنبعث من الآلة القابعة في زاوية ما من البار.

قال رحال:

- تعرف أن لي موقفًا من النساء، لكنه لا يشبه موقفك. يبدو أنك تبالغ كثيرًا، لكن لا أدري ما إذا كان كل الكتّاب لهم نفس الموقف. أنا لست كاتبًا. تعرف هذا. وجدت ذلك في سوناتا تولستوي. يتحدث كثيرًا عن المرأة، عندما تكون الفتاة عزباء تعمل ما في مستطاعها لإثارة انتباه كل الرجال. أقول كل الرجال. وعندما تحصل على واحد، تحاول أن تسيطر عليه. قرأت عن تولستوي أن زوجته حاولت أن تسيطر عليه. تفو! يخ!

- في الواقع، أنا ليس لي موقف معين بالضبط.

- لا إن لك موقفًا. إنك تكرههن.

- ليس تمامًا. أنسجم مع نوع معين منهن. لا أشعر بأي حرج.

قرقب بائع اللوز ملعقته على الصينية:

- Des amandes!

- درهم.

لماذا لا يأكل لوزًا. إذا كان قد عاف تلك السردينات البئيسة في الصحن؟ أخذ يلتقط اللوزة تلو الأخرى ويلقيها في فمه بدون شهية. كانت اللوزات مالحة جدًا. توقفت الأغنية وتلتها أغنية أخرى تتحدث عن امرأة متعذبة والطرف الثاني لم

يحاول أن يفهمها مع أنه في مستطاعه ذلك، لكن ربما كان الذي لم يحاول أن يفهمها يعرف أن لها علاقة مع شخص آخر، مثلما هي العلاقة الموجودة بين رحال وجيجي. أما هو فلم يستطع أن يفهم حتى ما الذي وقع. كيف تم ذلك؟ لا يدري.

وقال رحال:

- إن جيجي ذات قلب طيب. فتاة تحب الخير، ربما لم تعرف الشر في حياتها قط.

- بالفعل.

- تعرف كيف تحتال على البحارة فتبتزهم جميع دولاراتهم.

- يستحقون أكثر من ذلك. هل تنام معهم؟

- لا أعتقد. إنها لا تحبهم. ربما حصل لها ذلك مرات قليلة جدًا.

- ألا تشعر بالغيرة عندما تفعل هي ذلك؟

- لماذا أغار؟ إنها مهنتها.

شرب جرعة من الكأس. وحاول أن يضع نفسه في موضع رحال. شعر بنشوة ع.ارمة تغزو خلايا مخه. أخذ يردد بعض كلمات الأغنية، كانت الزجاجة قد فرغت. غمر البار

ضوء، وخلف الزجاج، أضواء مصابيح الـشارع والـسيارات الهادرة. نهض متثاقلًا، جرجر قدميه بعد أن دفع الحساب، قرر أن يأخذ تاكسي ويلتحق برحال ليقول له بأنه نام مع جيجـي، لن يدعها تكذب عليه. سيقول له إنه لم يعـرف كيـف حـصل هذا. ولكنه مع ذلك قـد حـصل، مـثلما بالإمكـان أن تحـصل أشياء أخرى في هذا العالم، خارجة عن إرادة البشر...

المحتويات

بيضة الديك

رواية

محمد زفزاف

" الحاجة تفتح فمها و تتكلم . أما أنا فلا أريد أن أتحدث كثيراً . أريد فقط أن أعيش . كل النساء يتشابهن . و أيضاً كل النساء يختلفن عن بعضهن . و لا يعنيني بقدر ما يعنيني إلا كل ما يعنيني . "


الغلاف حسين جميل


9 789774 990809